د. مصطفى محمود

يوميات نص الليل

الطبعة السابعة

دار المعارف

تصميم الغلاف: شريفة أبو سيف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

الطفل العميق

حينما كنا أطفالا كانت الدنيا تبدو فى عيوننا متحفًا رائعًا مليئًا بأشياء غريبة مذهلة مدهشة . . وكنا لانكفّ عن الدهشة كلما وقعت عيوننا على شىء . . ولانكف عن السؤال . . ولانكف عن الفضول . . ولاتشبعنا إجابة . . إذا قالوا لنا هذه شجرة . . عدنا نسأل بكل براءة . . وماالشجرة . . فيقولون لنا . . نبات أخضر . . ومالنبات الأخضر . . نبات له جذر وفروع وأوراق . . وماالجذر ومالفروع وماالأوراق . . مثل الأرجل والسيقان . . وماالأرجل والسيقان . . قوائم مثل قوائم الكرسى . . وماالكرسى . . آلاف الأسئلة . . ولانهاية . . ولاشبع . . ولاجواب يشفى غليل العقل المتطلع إلى الحقيقة . . ولا كلمة تحمل لنا مدلولا . . كلها كلمات فارغة بلامعنى . .

ونحن حينما نتذكر هذه الأسئلة الآن وبعد أن كبرنا يخيل إلينا أنها كانت إلحاحًا تافهًا . . ولجاجة سمجة . .

والحقيقة أنها لم تكن أبدا إلحاحًا تافها .. وإنما كانت اكتشافًا خطيرًا ..

لقد اكتشفنا بها إفلاس اللغة .. فما اللغة إلّا مجموعة حروف وإشارات مثل إشارات مورس التلغرافية ليس فيها صدق غير الصدق الاصطلاحى الذى اصطلحنا عليه .. كل الكلمات ليست سوى اصطلاحات مرغمة على دلالات هى بريئة منها .. مجرد بطاقات كبطاقات التسعيرة قابلة للاستبدال من بلد إلى بلد ومن لغة إلى لغة ومن زمن إلى زمن .. أما الحقيقة ذاتها فهى بلا اسم ..

الحقيقة مطلقة من الأسماء .. نباشرها بقلوبنا ولانستطيع أن نسميها بأسماء تحيط بها ..

بيننا وبين الحقيقة فرقة وانشقاق .. ارتباطنا بالحقائق ارتباط سطحى .. ارتباط بألفاظ .. ارتباط بأجسام .. خبز وثرثرة وعادات متوارثة وكلمات محفوظة وحياة تمرّ على طريقة قتل الوقت .. وقتل الحياة .. قزقزة لب .. وإحراق سجائر .. وإحراق أيام .. ماذا نأكل اليوم .. كيف ننفق ملل هذا المساء .. كيف نوقع هذه المرأة فى حبائلنا .. غرائزنا تسدّ علينا أبواب إدراكنا .. لايكاد الواحد منا يرى أبعد من ساق زوجته .. لايكاد يرى أبعد من غرفة نومه .. وغرفة طعامه .. وأنانيته توصد عليه الباب أكثر بأن تسجن أفكاره فى حلقة مفرغة من الحقد والحسد والغيرة والمصلحة .. نوم عميق وحياة أشبه بالطقوس البدائية ..

لاشىء يضىء هذه الحياة سوى اللحظات الطفلة .. اللحظات التى

نرتد فيها إلى طفولتنا وبراءتنا ونشاهد الحياة فى بكارتها ونظافتها وعذريتها من قبل أن تدنسها الكلمات .

لحظات الصحو والانتباه والرؤى الطاهرة التى تقفز بنا عبر أسوار المألوف والمعتاد وتكشف لنا وجوها أخرى من وجوه الحقيقة .

وهذا هو ماقصده النبى أيوب حينما قال كلمته المعروفة فى التوراة وقد بلغ به العذاب والصبر مداه .. فقال مخاطبا ربه :

الآن تستطيع عينى أن تراك ..

من ذروة العذاب والألم رأى أيوب الحقيقة فى لحظة من هذه اللحظات الملهمة .. رأى قدسية الحياة برغم الشقاء وبرغم الألم .. وشعر بهذه القدسية فى نفسه .. فى إصراره وصموده وصبره وصراعه مع المستحيل الذى بلغ الذروة .. دالاً بذلك على منتهى حريته .. فابتهج لأنه أصبح جسد الحرية ولحمها ودمها ..

وهى اللحظة نفسها التى صرخ فيها الطفل فى قصة هانز أندرسون وأشار إلى الإمبراطور وهو يغرق فى الضحك قائلا : .. ألا ترون أن الإمبراطور عريان ..

إنه الوحيد الذى لم ينخدع بحكاية الثوب الخرافى الذى نسجه الدجالون للإمبراطور .. الوحيد الذى نظر إلى الإمبراطور فوجد أنه لايلبس شيئا .. فقال ببراءة وصراحة وبلا خجل وبلارياء .. انظروا .. ألا ترون أن الإمبراطور عريان ..

وهذا أعمق مافى الطفل .. تلك البراءة التى لاتعرف الخوف ولاالخجل

ولاالكياسة ولاالمجاملة .

حينما يرفع إلينا الطفل وجهاً يقطر بالبراءة والسذاجة ليسألنا :

– من أين جئتم بى إلى هذه الدنيا ؟ . .

فإنه فى الحقيقة يضع سؤالا لايستطيع أن يجاوب عليه أحد . سؤالا أعمق من كل أفهامنا وأفهام آبائنا وأجدادنا من الفلاسفة الذين أفنوا أعمارهم فى التفكير . .

من أين جئنا إلى هذه الدنيا . . وإلى أين نذهب ؟ ! . .

لاأحد من الكبار يعرف . . ولاأحد يحاول أن يعرف . . ولاأحد يفكر . .

كلنا أرحنا أنفسنا من التفكير ومن الأسئلة ومن الأجوبة . . وشغلنا أنفسنا بما نأكل اليوم ومانشرب . . وكيف نقتل ملل هذا المساء وكيف نوقع هذه المرأة فى حبائلنا . .

ولكن الطفل البرئ العميق . . مشغول . . وهو يطرح علينا سؤاله بكل براءة . .

ومن هذه اللحظات النادرة . . من هذا القلق الطفل العميق الذى يهتك ألفة الأشياء المألوفة فتبدو غريبة غير مألوفة . . تتدفق الأسئلة التى يتألف منها فكر الإنسان وحضارته وتقدمه . . بدافع هذا القلق النبيل يعيد الإنسان النظر فى كل شىء ، ويرفع المنظار المبتذل الذى يضعه على عينيه ويكف عن الرؤية العادية المبتذلة ، ويبدأ فى تقدير الأشياء بمعيار جديد ويحلق فوق مستوى غرائزه . ويرى أبعد من أنفه ويصلح من هندامه . .

ويطوّر من تفكيره ولايعيش ويموت كذباب ملتصق بالعسل .

فى رؤى الفنان . . وأحلام القائد . . وإلهام المصلح . . هذه البراءة التى تكشف بضوئها فساد المألوف . . وقصور الواقع . . وتتطلّع إلى حل . . وجواب . . وخلاص . .

والعظيم هو الذى يحافظ على براءته وعلى أفكاره الحرة المجنحة التى تزدرى كلّ ماتواضع عليه الناس من واقع مألوف مبتذل .

مرحباً بالخوف

أسوأ شىء أن تفتح عينيك فى الصباح على الجرائد . .

إن معنى هذا أن تعلن الحرب على أعصابك كل يوم . . وتشرب الهمّ والخوف والرعب والإشعاعات الذرية والقنابل النووية والتّهديدات الساخنة والباردة على كل إفطار .

وإذا كانت زوجتك تقول لك صباح الخير فالجرائد تقول لك صباح الشر . . صباح الغُلب . . صباح التشرّد . . صباح الزلازل . . صباح الفقر . . صباح القنابل مليون طن التى ستنزل على رأسك . . نهارك أسود إذا كنت مع خروشوف . . ليلتك كحل إذا كنت مع كنيدى . . يومك مش فايت إذا كنت مش مع حد . .

هذا بالطبع غير البراكين والصواعق والجرائم والأرواح والأشباح والميكروبات التى تأتى طائرة من المريخ . . والأشعة الكونية المهلكة التى تأتى من فتات النجوم البعيدة .

وإذا كانت فى يدك سيجارة فستلقى بها مذعوراً حينما تطالعك مقالة فى علاقة السرطان بالتدخين وصورة للجرّاح العالمى الذى يؤكد أن جراحات السرطان التى أجراهات كانت لمدخنين.

وإذا كنت شكّاكًا فلن يواتيك نوم بعد أن تقرأ القصة المسلسلة عن الزوجة الخائنة التى تذهب إلى عشيقها فى كل مرة تقول لزوجها : أنا رايحة للخياطة . . ضرسى بيوجعنى رايحة لدكتور الأسنان . . حاغيب شوية عند الكوافير ياحبيبى ماتقلقش .

يادى الداهية . . ! ! ؟

ماهى الوليّة كلّ يوم عند الخيّاطة . .

إن صباح الجرائد معناه صباح ضغط الدم . . والقلق . . والأرق . . واليأس من العالم بما فيه . .

إن العالم فى نظر المقالات الافتتاحية عالم من الحقد والكراهية والبغض والانتقام والشر . . وهو فى نظر الكتّاب عالم من الشواذ والعقول المنحرفة والعقد النفسية . .

والمفكرون فكرّوا كثيرًا فى هذه المشكلة .

ماذا نفعل بالجرائد ؟ . .

هل نتركها تنشر صورة للعالم كما هو على علاته . . وهى فى العادة صورة مفزعة تنفى النوم عن عيون من يقرأها .

أو تنشر بها صورة للعالم كما نتمنّى أن يكون .

فى روسيا مثلا . . كان المتبع أن تظهر صفحات الجرائد بيضاء من غير

سوء . . بلا جريمة . . بلاخيانة . . بلادم . . صفحات بيضاء فيها برامج الحزب لإصلاح حال القراء ورفع مستواهم ورفاهيتهم . . وقصص متفائلة . . ومقالات هادفة . . ورسوم مسلّية . . ولاشىء غير هذا . العالم بخير . . وروسيا فوق الجميع . . والسلام عليكم ورحمة الله . .

مارأيكم فى هذا . . ؟

أنا رأيى أن هذا كلام فارغ . .

العالم لايمكن حمله على التفاؤل بالكذب عليه . . ولايمكن تربية فضائله بحجب الحقيقة عنه . .

إن وحوش الغاب ملطخة بالدم نابًا ومخلبًا بدون أن تقرأ الصحف . .

وعدم نشر أخبار الجرائم لن يوقف تيار الجرائم .

ومن الثابت عندنا مثلا . . أن أعلى نسبة للجرائم تحدث فى الصعيد وفى الأرياف . . حيث الأمّية . . وعدم القراءة . . هى القاعدة . . وحيث تداول الصحف أندر من تداول المخدرات . .

إن الجرائم تحدث لأن هذه هى حقيقة الإنسان . . وهذا واقع تفكيره . . وليس لأنه يقرأ أخبار الجرائم فى الصحف .

وأنا أفضّل ضغط الدم الذى يصيبنى من قراءة الحقائق . . على البلادة التى تصيبنى من قراءة الأخبار المتفائلة . .

أنا أفضّل القلق على الغفلة . .

والغفلة نتائجها مفاجئة وفاجعة . .

هزيمة ألمانيا وانهيارها وسحقها فى الوقت الذى كانت فيه مقالات جوبلز

وإذاعاته وصحفه تطنطن بالنصر والقوة كانت شيئاً مضحكاً وفاجعاً بالنسبة للشعب الألمانى المخدوع المقهور على نفسه . . كانت معناها انتهاء الثقة بكل سطر يكتب وكل خبر تنشره صحيفة أو تروّجه إذاعة . .

ونحن فى العادة نشعر باليأس كلما طالعتنا هذه الصورة السوداء للعالم فى الصحف . . الحروب . . المجاعات . . الوحشيّة . . الظلم . . الجريمة . .

وعلماء التّربية يقولون لنا : هذه مسألة تربية . . هذه مشكلة تربية . . هذه عقد الطفولة المشردة . . والجنس المكبوت . . ومركبات أوديب والكترا . . ومركب النقص . . وعقدة العرض . . وقد ظهرت وأفصحت عن نفسها . . لو أن أطفال العالم تربوا تربية نموذجية على أيدى إخصائيين نفسانيين لما حدثت كل هذه الجرائم والفوضى والحروب . .

ونحن فى العادة نحلم بإدخال أطفالنا فى مدارس حضانة نموذجية . . فى الليسيه . . والانجليش سكول . . والميردى ديو . . ليقولوا لنا فى الصباح . . بونجور بابا . . بونجور ماما . . باى باى تانت . . ويبتسمون فى أدب . . ولايسرقون الشكولاتة .

ونحلم بدورنا فى أن نخلق بهم عالماً يرفرف عليه السلام . . والمحبة . . والوداد . . والصفاء . . والهناء . . عالم من ناس نموذجيين يتبادلون قبلات الودّ ويفترّقون بعناق ويتلاقون بعناق ويعيشون فى حب وتفاهم ووئام . . سمن على عسل على سكر بودرة .

ولكن هذه الصورة التى نحلم بها . . والتى يحلم بها علماء التّربية صورة خرافية غير طبيعية . . مثل حواجب مزجّجة ووجه مدهون .

لايمكن الوصول إلى هذا المدى من الوداد والصفاء والهناء إلا بالتكلّف والرياء والمجاملة والمزايدة فى النفاق من كل جانب .

وهذا الأسلوب الناعم الزلق المدهون باللطافة قد يكون أسلوب التجار أو الجرسونات أو رجال السلك الدبلوماسى باعتبار أن مهنتهم الرئيسية هى الاستدراج والانتفاع وجلب الفلوس والمصالح وكسب الصداقات وعقد المعاهدات مع الخصوم ومع الأعداء وترويج الأكاذيب . . ولكنه لايمكن أن يكون أسلوب الناس الطبيعى للحياة . .

الحياة الطبيعية حياة خشنة فيها تضاريس ومرتفعات ومنخفضات ومطبّات وقبلات وصفعات ولكمات . . الحياة الطبيعية فيها مصادمات . . وهى مصادمات ليست كلها شرًّا — ولكن بعضها مصادمات فاضلة . . كالهرمونات . . تستفزّ . . وتنبّه . . وتشحذ . . وتحفظ المسافة بين كل فرد وآخر فلايذوب الناس فى بعضهم كالسبيكة . . ولاتتحوّل البشريّة إلى قطيع . . وإنما يظل للأفراد كيانهم واستقلالهم . . يظلّ لكلّ واحد فلكه الذى يدور فيه . . ومجاله الحيوى الذى يعبّر فيه عن نفسه .

وهى مصادمات تدفع وتستفز كل واحد على أن يبدع ويجيد ويبدو فى أحسن إمكانياته . . وتتحدّاه . . وتهيب به أن يعمل . . وتحتفظ به فى حالة انتباه ويقظة وحذر وتحفّز .

إنها كالفيتامينات . . وكهرمونات الغدّة الدرقية التى تنشّط عوامل الحياة فى الجسد .

والصداقة التى تشبه شيك على بياض . . وكارت بلانش . . ليست

صداقة بقدر ماهى خضوع وتسليم .

الصداقة الكاملة هى التى تحتوى على قدر من هذه الخلافات الفاضلة الحافزة المنبهة المنشطة .

الصديقان النموذجيان هما كزوج من القنافذ .. يتعاطفان ويتعاونان ويتلازمان ويتقاربان .. ولكن لايذوبان فى بعضهما لأن كل واحد له درقة من الأشواك تحميه من أن يقتحم عليه الآخر خصوصيته وسريته وينتهك وحدانية نفسه وقدسية استقلاله .

أنا أنظر إلى هذه الخلافات على أنها وليدة الشخصية الإنسانية وعلى أنها طبيعة .. ليست شرًا خالصًا .. وليست لعنةً خالصة .

طبيعة يلزم تهذيبها كما نهذب غرائزنا الجنسية .. ولكن لايصح استئصالها .. كما أنه لايصح استئصال غرائزنا الجنسية ، لأن لها وظيفة ودورًا فى تكامل الشخصية .. وحفظ كيانها .

وإذا كانت هذه تؤدى إلى جريمة سرقة فى حالة من ألف حالة .. فإنها تؤدى أغراضًا نافعةً فى الحالات الباقية .

ومن الخطأ أن تضغط أجهزة التربية على الأفراد لتطبع منهم نسخةً واحدةً من القطط الأليفة .. أو الحملان الوديعة .

من الخطأ تقليم الأظافر والأنياب والغرائز .. وتحويل الأفراد إلى نفوس مخنثة واهية راضية قانعة متفائلة .. هذا مسخ .

فى الطبيعة عنف .. ولابد أن يحتفظ الواحد منا بعنفه وتوتره وتحفزه ليستطيع أن يجابه عنف الطبيعة وضراوتها .

فى ثورة البحر .. فى عاصفة الصحراء .. فى صقيع الأقطاب .. فى حرور الخطوط الاستوائية .. فى جفاف الأراضى البور .. فى الصاعقة .. فى الزوبعة .. فى الزلزال .. عنف وضراوة .

الطبيعة لاإنسانية .. قاسية .. وحشيّة .. ونحن فى حاجة إلى أظافرنا وإلى أنيابنا وعضلاتنا وإلى العنف الطبيعى فى نفوسنا لنواجه هذا الطوفان من المقاومة فى الطبيعة حولنا .

إن جرائد الصباح تثير أعصابى .. هذا صحيح .

ولكن لامانع عندى أن تثور كل يوم .

إنها جُهِّزت وأعدت لهذا الغرض وحده .. لأن تتوتر .. وتثور .. وتتحفز .. وتتوثّب .. وتتنبه .

إن ضغط الدم .. والقلق .. والأرق .. الذى يصيبنى من الحقائق أفضل من الخنوثة والتراخى والفتور الذى يصيبنى من التطامن والتفاؤل .

إنه تطامن يربى الشحم على قلبى وشعورى .. ويميتنى بالسكتة لأقل خيبة أمل .. ولأتفه خبر غير متوقع .. وكل الأخبار تصبح فى هذه الحالة غير متوقعة .

الشرّ

كلّ الفلسفة التى فى العالم .. وكل المعارف التى فى الكتب .. لاتستطيع أن تشرح لى حكمة الشرّ فى هذه الدنيا .

لماذا يتعذّب الأطفال الأبرياء ؟ .. لماذا يغتالهم المرض ؟

إن منظر طفل مشلول يتحدّى كلّ الكلمات .

كل الكلمات تصبح ثرثرةً سخيفةً غير مجدية .. وكل علم الأوّلين والآخرين يصبح جهلاً عميقًا مثيرًا للإشفاق .. أمام عذاب طفل يبكى .

لاشىء كالألم ..

إنه ألم فصيح .. وقح .. صفيق .. متبجح .. يصفع كل إيمان .. وكل معرفة .. ويزرى بكل حكمة .

إن صرخة الطفل المشلول تخرق كلّ أذن .. وتسفّه كل حكمة .. وتخترق السموات السبع .. وتصعد إلى الله نفسه .. لتصرخ عالية فى حضرته .. بلاخوف .. فى سؤال أبدىّ شديد الإلحاح :

ماذا فعلت لأتألم ؟

ماذا جنت يداى البريئتان المغسولتان من كلّ الأفعال وكل النوايا ؟

من الذى زرع الشوك . . وأنزل اللعنة . . وصبّ النقمة وبثّ الشرور . . هنا . . فى هذا المكان ؟

من صاحب كل هذا ؟

ولماذا فعله ؟

أهى صدفة أن يتعذّب الأطفال . . ويمرض العجائز ، ويدبّ فيهم السوس حتّى النخاع ؟ . .

أهى صدفة أن تعطب كل الثمار الناضجة . . وتنتشر الديدان فى البراعم فتأكلها وهى غضّة ؟ . .

أهى صدفة أن يمتلئ الماء والهواء والتراب بميكروبات فتّاكة تنشر الدمار والخراب وتنهش كل حياة تخالطها . . وتنهش بعضها فى شراسة لاتشبع ؟

أهى صدفة أن تتقلّب الأرض بين برد قارس . . وحرّ لافح . . ورياح سموم . . وسيول كاسحة . . وزلازل مروعة . . وبراكين متفجرة . . وصواعق منقضّة . .

أهى صدفة أن تتغذّى الحياة بالعدوان على بعضها فتلتهم الماشية الزرع . . وتلتهم الذئاب الماشية . . وتلتهم السباع الذئاب . . ويقتل الإنسان الكل . . ثم يتحوّل الجميع إلى تراب يعود إلى الأرض فيخصبها ويصبح غذاءً تلتهمه النباتات من جديد ؟

أهى صدفة هذه الدورة الانتقامية التى يثأر فيها كلّ شىء من الآخر ؟ . .

أهى صدفة . . آلام الولادة . . وآلام الاحتضار . . وعذاب الحمْل ؟ . .

أهى صدفة عذابنا المتكرر كل يوم ونحن نجرى وراء اللقمة نملأ أحشاءنا . . ونحن نجرى مرة أخرى لنفرغ أحشاءنا ؟

صدفة أن نتمزّق كل لحظة بين شاعريّة أرواحنا . . وحيوانيّة أجسادنا . . وبين مانفعله . . ومايجب أن نفعله . بين مطالب أنفسنا . . ومطالب الآخرين . ؟

صدفة أن يفنى كل شىء . . كل ماهو جميل . . وكل ماهو مشرق . . وكل ماهو أمل . . وكل ماهو قوة . . كل اللحظات بكل ماتحويه . . تفنى . . وتنصرم . . وتنتهى . . وتذهب إلى غير عودة ؟

صدفة . . حياتنا اليومية لحظة بلحظة فى خوف . . وقلق . . وانتظار . . وترقّب . . وتوجّس . . وحذر . . لانجاة منه إلا بشرور أخبث منه . . كالإدمان . . والإفراط . . والتفريط . . والبلادة . . والسفه . . والوقاحة . . والصفاقة ؟

صدفة أنك تظلمنى . . وأنى أظلمك . . وأنك تحقد علىّ وأنى أحسدك . وأنك توقع بى . . وأنى أسخر منك . . وأنك تضطهدنى . . وأنى أستغلك ؟

صدفة أن تكون الحريات فى العالم كله شحيحة . وأن يكون الأمان

مستحيلا واليقين ممتنعًا والثقة نادرةً . . والحب قصة . . والصداقة طرافة تروى ؟

صدفة . . جرائم السرقة والقتل والاغتصاب . . وأحكام الإعدام والمؤبد والأشغال الشاقة ؟

صدفة . . الحروب والمجازر والمذابح . . منذ ظهور الإنسان إلى هذه اللحظة التى أكتب فيها هذه السطور ؟

صدفة . . الكذب كل يوم . . وكل ساعة . . وكل لحظة على أنفسنا . . وعلى الآخرين ؟ .

صدفة . . الغرور . . والأنانية . . والتعصب . . والتسلّط . . والطغيان ؟

لا . . إنها ليست صدفًا بالمرة .

إنها بعض مكوّنات الحياة .

إنها مخلوقة فى هذا الكون . . وموجودة قبلنا .

إنها جزء من الطبيعة القاسية التى وجدنا أنفسنا على ظهرها . .

ومضينا نصطرع فيها بلا حيلة . . لأنها فينا . . بضعة منا . .

وهى ليست جريمتنا . . ولاجريرتنا . . فالزواحف المنقرضة التى عاشت على هذه الأرض من قبل مجيئنا ماتت ملطخة بالدم نابًا ومخلبًا . . ودفنها الجليد . . العذاب فى حشوة الكون . . وليس صنيعة الإنسان وحده . .

وإذا كنا نبدو أحيانًا وفى يدنا السكين فنحن أيضًا القتيل . . والطعين . .

نحن الوارثين الأبرياء لهذه الطبيعة الممزقة الشريرة . . لم نجلبها على أنفسنا . . وإنما جلبتّها علينا لحظة الميلاد .

هل من ضرورة لهذه الآلام ؟ .

هل من سبب ؟

هل من حكمة ؟

فى الكتب المقدسة . . إن هذا القضاء جرى علينا تكفيرًا عن الذنب الذى ارتكبه أبونا آدم . . حينما عصى ربه وأكل من الشجرة المحرمة .

وكل حياتنا منذ اللحظة الملعونة كانت فدية . . كانت قربانًا لله ليغفر . . ويعفو . . ويسامح .

فلدى المسيحيين . . دم المسيح كان فدية . . افتدى بها البشرية .

الملايين الذين ماتوا ظلمًا . . على الصلبان . . والمشانق . . وفى أعماق السجون كانوا فدية . .

الصالحون . . والأولياء . . والأتقياء . . والصادقون . . وأصحاب المذاهب والرسالات . . والقادة المخلصون . . كانوا قرابين لله . . ليرضى . . ويعفو . . ويغفر . .

وأنهار الدم . . مازالت تجرى

الله لم يغفر لنا بعد .

والفلاسفة يقولون إن الشرّ هو ثمن الحرية .

كان لابد لتوجد حرية أن يلازمها الشرّ كعَرَض من أعراضها . . فالحرية تستدعى الاختيار الحرّ . . وتستدعى أن تكون للإنسان إمكانية الصواب . . وإمكانية الخطأ . . وحرية أن يفعل ماينفعه أو مايضره . . ولو أن إرادته اقتصرت على توجيهه إلى النافع لما كان بذلك حرًّا . . ولأصبحت حياته ذات وجهة واحدة وطريق واحد . . لااختيار فيه .

الحرية أن نفعل مانشاء خطأً أو صوابًا ونتحمل مسئوليته . . ومن هنا كان لابدّ من الوقوع فى الشر . . لأنه لابدّ من الخطأ . . حيث إنه بتقديرنا المحدود وحواسنا المحدودة وإدراكنا المحدود لن نحيط بالحقيقة ولن نعرف كل شىء . . وسنخطئ دائمًا . . وحتمًا . . وسنعيش فى مشقّات متصلة نتيجة هذه الأخطاء .

لامفرّ . . حيث الحرية . . لابدّ من الخطأ .

وماخطيئة آدم إلاّ رمز للحرية . . حرية المخلوق فى مواجهة الخالق . . لقد أراد آدم أن يفعل مايشاء لامايشاء الله . . واقتضته هذه الحرية أن يقع فى الخطيئة وفى الشر ؛ لأنه لم يستطع بحواسّه المحدودة أن يحيط بالحقيقة ، وأن يدرك عاقبة أكله من الشجرة . . وأنه إذ يأكل لابد له أن يُخرج نفايات مايأكله .

وأنه إذ يأكل لابد له أن يجرى وراء لقمته ويكسب قوته بعرق جبينه ، ويكافح ويصارع ويقاتل لينتزع لقمته من أنياب الآخرين . . وهذه هى حياة الأرض بشرورها وآلامها . . لاالجنة . . وهكذا أخرجت آدم حريته من الجنة . . لأنه أراد أن يفعل مايشاء .

ومازال أبناؤه يصرّون على أن يفعلوا مايشاءون . . ويعيشوا أحرارًا . لقد حمل الإنسان الأمانة . . والأمانة هى الحرية . . بعد أن رفضتها السماء والأرض والجبال . . فليحمل تبعاتها . . وليس الإنسان وحده . . بل كل المخلوقات . . فالحياة حرية والحيوان يختار بغريزته . . كما يختار الإنسان بعقله . . والميكروبات الدنيئة تختار بفطرتها . . والنباتات المنحطة تتصرف بموجب طبيعتها الخاصة .

الحياة حرية على جميع المستويات .

حتى الجمادات . .

هناك من العلماء من يقولون إن الإلكترون لايتحرك حركة مقدورة محتومة . . ولكنه يطفر طفرات حرة نابعة من ذاتيته . وغير خاضعة لأى قانون .

حتى الكواكب . . تقول المراصد إنها تخطئ أحيانًا ، وتخرج على مساراتها وقوانينها وتنفجر وتتحطم فى فضاء الكون الفسيح . . وتتساقط شهبًا وسحبًا من النار والغبار .

الحرية باطنة فى الوجود والخطأ يلازمها . .

لأن الحرية باب . . ينفتح على مفترق طرق . . أحد هذه الطرق هو الصواب . . والطرق الباقية مؤدية إلى الخطأ . . إلى الجحيم . .

إنها الحرية إذن مفتاح الشقاء الإنسانى . . وهى أيضًا مفتاح اللذة .

وبالحرية وللحرية نتعذب ونعانى . . ونتخبط بين السكك والمذاهب . . ونخوض الحروب والمجازر والمذابح . . ونمشى فى الدم . . ونمرض ونشيخ ونموت . . وتتحول حياتنا إلى نزال وحركة دائبة لاتهدأ . .

وأىّ تكاليف لاتردّنا عن طلب الحرية . . وأى ضريبة لاتروعنا . . وأى خسارة لاتخيفنا . . وأى عذاب لايضعفنا . . فنحن نحب حريتنا أكثر مما نحب سعادتنا . . لأن حريتنا هى شرط وجودنا . . جوهر وجودنا . . حقيقتنا . . لذتنا العميقة .

بالحرية نكون أنفسنا .

وبدونها لانكون شيئا .

ونحن نستكثر مافى الحياة من ألم ومرض وشقاء وعذاب .

نستكثر أن يولد الإنسان ليمرض ويشيخ ويموت ويتعذب . .

ومع ذلك فالإنسان نفسه الذى نشفق عليه . . هو نفسه يربى الميكروبات ويحالفها ويؤاخيها ويزرعها فى قوارير ويصنع منها قذائف . . ويعبئ الغازات الخانقة فى قنابل ويقف ثائرًا متوعدًا على أعتاب حرب ذرية لايتردد فى خوضها دفاعًا عن حريته . . لأن هناك شيئا ماأقوى من كل الشرور وأبشع من كل البشاعات فى نظره . . أن يستذل . . أن تداس أوطانه . . وتستعمر بلاده . . ويهان . . وتسلب حريته .

إن هذا يسلبه بطاقته الشخصية كإنسان .

إن كل مافى الدنيا من ألم وعذاب وشقاء مقبول على العين والرأس فى مقابل أن يكون الإنسان حرًا وأن يكون مجتمعه حرا .

الإقطاع تحطم أمام الرأسمالية لأن الرأسمالية كانت وعدًا بالحرية للكثيرين . . والرأسمالية تحطمت أمام الاشتراكية لأن الاشتراكية كانت وعدا بتحرير الكل .

والتاريخ من أيام الفراعنة ومن عصور الظلام كان تاريخًا داميًا . ولكن الحرية كانت دائمًا تسوغه فلم تكن الدماء الغزيرة التى سالت على صفحاته إلا حكاية حرية .

وإذا كنا نعيش ونبتسم ونضحك ونغنى فى عالم يمرح فيه العدوان وتنتشر فيه الأحقاد فلأن الحرية تبرر هذا المرح . . والعمل من أجل الحرية يجعل حياتنا طافحة بالنشوة ريّانة بالأمل . .

وإنما نعلو على جراحنا وننساها . . كلما نظرنا إلى الخلف على مدى الرؤية ثم إلى الأمام . . إلى المستقبل البعيد . . وأبصرنا المشوار الذى مشيناه فى سنوات حياتنا القليلة . . وفى قرون من الصبر والجلد والمكابدة . . من قبلها وإنه لمشوار رائع .

والإسلام يضيف لمسة جميلة فهو يقول لنا أن الشر ابتلاء وامتحانى تمايز فى المنازل والدرجات وتنكشف النفوس على حقيقتها . . ثم يضيف بأن الحياة الدنيا بشرورها مجرد صفحة من كتاب سوف تتلوها صفحات وصفحات فبعد الدنيا رقدة البرزخ ثم صحوة البعث . . والهجرة إلى الله مستمرة فلا يصح أن نحكم على كتاب من قراءة صفحة واحدة . . ثم هل نحن أهل كمال لنشترط الكمال . . . وهل احطنا بكل شيىء لنحكم على كل شيىء أن المشكلة أكبر من العقل ولاجواب لها إلا الإيمان .

مناقشة

نظرية دارون . . أصبحت الآن من المعلومات الأولية التى يتعلمها التلاميذ فى المدارس الإعدادية والثانوية . . ومن النكت الدارجة فى المجلات ومن الموضوعات الشائعة التى تصاغ حولها القفشات الصحفية . إلى هذا الحدّ أصبحت مادة يومية مسلية .

ومع هذا فإنها لم تكن فى نظرى أبداً شيئا مسلّيا .

ومنذ قرأت لداروين وأنا أسأل نفسى كل يوم . . هل فسّر لنا هذا الرجل سرّ الحياة حقًّا . . وتعالوا معى نتناقش .

داروين يقول ببساطة : إن الكائنات الحية فى محاولتها لأن تتكيف وتتلاءم مع البيئة . . طورت أعضاءها لتواجه الاحتياجات المتعددة التى تتطلبها تلك البيئة .

الحيوانات التى نزلت الماء نشأت لها زعانف وذيول وخياشيم . . والحيوانات التى اقتحمت الهواء نشأت لها أجنحة وريش وأجسام انسيابية

خفيفة . . والحيوانات التى اختارت الأرض لتدب عليها نشأت لها أذرع وأرجل وأصابع .

وهكذا تعددت الأنواع ونشأت تصانيف مختلفة من الحيوانات كل منها مجهز ليواجه بيئته . . وتطورت الحياة التى بدأت بخليّة واحدة تقوم بكل الوظائف إلى حيوانات عديدة الخلايا راقية متخصّصة . . ونشأ الحيوان الذى يستطيع أن يواجه بيئته الصعبة المعقدة ويعيش فيها ويصارعها .

وفى أثناء هذا الصراع الطويل كانت الأنواع التى تعجز عن التكيف تموت . . وكانت الأنواع التى تثبت صلاحيتها وملاءمتها تعيش ، وبهذا قامت الطبيعة بنفسها بعملية اختيار الأصلح والأنسب واستبعاد الأضعف والأقل ملاءمة بدون نظر إلى أى اعتبار آخر . .

ونشأ الإنسان فى قمة هذه السلسلة الحيوانية وتفوّق عليها جميعها ، وحكمها بفضل قدرته الهائلة على التكيف ، وهى القدرة التى زوّده بها جهازه العصبى الراقى وعقله الذى دلّه على اختراع سبق به كل الحيوانات هو اختراع الأدوات . . فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذى لاينتظر أن تتطور ذراعه لتصبح فى قوة الأسد ليصارعه ، وإنما هو يخترع الخنجر والبندقية ويضربه . . وبالمثل لاينتظر أن ينمو له جناح ليطير وإنما يخترع الطائرة . . ويخترع السفينة . . ويخترع الغواصة .

هذا هو كلام داروين . .

وواضح أن الارتقاء والتقدم له فى نظر داروين معنى واحد فقط هو نشوء أنواع أكثر ملاءمة من أنواع أقل ملاءمة . . ونشوء أنواع قادرة على

التحكم فى بيئتها من أنواع قليلة الحيلة .

إنها مسألة ارتقاء فى القوى المادية لاأكثر ولاأقل . . والتطور لايحكم اتجاهه إلا هذا الحافز الطبيعى وحده .

الحياة تتجه إلى مزيد من القدرة . . مزيد من الكفاءة . . مزيد من السيطرة على بيئتها . .

هل هذه هى كل القصة . . أبدًا . . هناك جانب مهمل تماما فى الحكاية . . فالحياة تتجه أيضا إلى الأجمل . . فالأجمل . . وهذه ملاحظة لاوجود لها فى نظرية داروين . . وليس فى كلامه مايفسرها . .

لماذا يخرج من عائلة الحمار شىء كالحصان . . أو من فصيلة الوعل ، شىء رقيق كالغزال . . الحصان ليس أكثر احتمالا من الحمار بل هو على العكس أقل جلدًا واحتمالا . . والغزال بالمثل أضعف وأرهف وأقل جلدًا واحتمالا . . والغزال بالمثل أضعف وأرهف وأقل جلدًا من الوعل . . وبالمثل الفراش الملّون الرقيق أبطأ وأضعف وأقل قدرة من الزنبور الطنان الغليظ الشكل . . والحمام واليمام والطواويس والعصافير الملونة . . أكثر رهافة من الصقور والحدادى والنسور .

ونشوء هذه الأنواع لايمكن أن يفسره قانون بقاء الأصلح . . وإنما قانون آخر هو بقاء الأجمل .

أجمل فى عين من ؟ . .

إنها كانت موجودة قبل الإنسان . .

أجمل فى عين بعضها البعض ؟

وهل يتذوق الحيوان الجمال . . ويشعر به . . ؟

أم أجمل فى عين الخالق الذى أبدعها وتفنن فيها ؟

أم هو اتجاه إلى الجمال . . اتجاه مجرّد من أى هدف . . جمال مجرد غير مقصود أن يراه أحد أو يستمتع به أحد . . جمال من أجل الجمال .

إن الجمال قيمة مبثوثة فى الوجود كله . . قيمة لاتستطيع نظرية مادية أن تفسرها .

الوجود الميت فيه جمال . . والوجود الحى فيه جمال .

الذرة فيها معمار وهندسة وتوزيع رشيق متوازن للإلكترونات والبروتونات . . والنبات فيه تنوّع هائل غنى فى الزهور والعطور والألوان والأشكال الشجرية الساحرة .

دراسة عابرة لأوراق النبات تكشف لك عن تصانيف عجيبة وموديلات لاآخر لها غاية فى الرقة والذوق كأنها رسمت بيد فنان عبقرى . .

وفى الطيور وفى الفراش وفى عالم الحشرات والزواحف والحيوانات المائية والبرية . . ملايين الأشكال الجميلة الرقيقة التى لايمكن أن تكون قد خلقت من أجل الكفاءة أو الاحتمال أو بقاء الأصلح ، وإنما هى خلقت من أجل الجمال والجمال وحده . . فالجناح المنقوش لايمكن أن يكون أكفأ للطيران من الجناح غير المنقوش .

إنها إذن مسألة جمال . . شياكة .

فى الطبيعة قوى تحرص على تجميل مخلوقاتها مثلما تحرص على قوة هذه المخلوقات .

أى قوى هذه التى تؤثر فى التطور . . وتخلق هذه الصور الفاتنة ومادوافعها ؟ .

داروين لايتكلم . . ونظريته لاتجيب .

هل هو تطور شبيه بالتطور الذى حدث فى فكرة المحرك الآلى . . والذى انتهى بظهور تصانيف مختلفة من هذه المحركات كالقطار والترام والأتوبيس والتروللى باس والديزل والمحرك النفاث . . حتى هذه التصانيف رسم لها الإنسان هياكل جميلة فيها ذوق وفن . . ولم يضع فى اعتباره مسألة الاحتمال ولا الصلاحية وحدها .

إن الجمال ملغىّ تمامًا من تفكير داروين . . وكأنما هو شىء لاوجود له .

داروين يفهم الحياة كمادة ويفسر تطورها بدوافع مادية .

ولكن الواقع يؤكد فى جميع الأحوال شيئًا أكثر من هذا . . فالحياة ليست مجرد مادة مندفعة لتوكيد ذاتها وفرض سيادتها على البيئة . . وإنما فيها شخصية وجمال . .

والجمال قيمة وليس مقدارًا يقدّر بالكم والوزن .

الجمال قيمة مرتبطة بالذات . . بالروح المدركة ، ولايمكن فصلها عن الحياة لأنها أصيلة فيها . .

وكل نظرية تفسر الحياة كمادة دون أن تفسرها كقيم جمالية هى نظرية ناقصة .

وأنا لهذا أشكّ فى نظرية داروين وأشك فى أنها كشفت لنا كل الحقيقة

شكوك فى محلّها

الشاب العصرى يجد عذرًا جاهزًا لذيذًا . كلما فكر فى أن يخالف لوائح بوليس الآداب ويغرق فى الهلس لأذنيه . فهو يقول لك . فرويد . هل قرأت مايقوله فرويد عن الكبت وعواقبه الوخيمة . . هل تعرف أن أهون هذه العواقب هى العقد النفسية والهستيريا والقلق والجنون ؟

وفى كل مغامرة جنسية تجد من يتبجّح أمامك بهذه الآراء . . باقتناع . أو لمجرد التبجح .

وقد تكون المتكلمة امرأة تحدثك عن الحرية الجنسية كوسيلة للبلوغ الصحة النفسية .

كلام فارغ طبعًا

ولكن المسئول هو فرويد .

— فرويد هو المسئول الأول عن انتشار الجرسونيرات فى العصر الحديث . . واقتراف الهلس باقتناع . . وراحة ضمير . . وأعصاب

باردة . . كعلاج علمى موضوعى للأمراض النفسية .

وفرويد مات وشبع موتا . . ولكن نظريته مازالت تعيش بيننا . . وتجد الأتباع والمؤمنين من الجنسين . . من أصحاب الشقق الخاصة . . والأوكار الغرامية . . والليالى الحمراء . .

وتعالوا نناقش هذا الرجل .

يزعم فرويد فى نظرية طويلة عريضة . . أن الإنسان مخلوق جنسى يستهدف اللذة الجنسية فى جميع مراحل حياته فى طفولته وصباه وشبابه وشيخوخته .

فى الطفولة يتلذذ الطفل بفمه فى الرضاعة . . ويتلذذ بتحسس جسمه العرى وباستعراض أعضائه فى زهو لايعرف الخجل . . ويتجه بغرائزه إلى أمه فيعشقها ويغار عليها من أبيه . . وأكثر من هذا يحقد على أبيه ويتمنى أن يقتله . . « عقدة أوديب » . . ومن ناحية أخرى يتشبه به ويقلده ويتمثّل به ليتخلص من أحساسه بالصغر فيصطنع لنفسه شارباً يرسمه بالقلم الفحم ويضع فى فمه سيجارة ويفخم حركاته ويضخم صوته ويختال فى مشيته ويتكلم بلغة الواعظ . . ومن هذا التمثّل تنشأ بذرة الضمير .

ثم يتخلص من نطاق عائلته لينزل إلى الشارع ويخرج من حبه لنفسه ليدخل فى علاقات حب مع الآخرين ممن يشبهونه من نفس الجنس . . الولد يحب الولد . . والبنت تحب البنت .

والتجمد فى هذه المرحلة يؤدى إلى الشذوذ الجنسى .

وهو تجمد يندر حدوثه لأن فترة البلوغ تنتزع الصبى من هذا الحب لتركز

انتباهه حول شىء آخر هو أعضاؤه التناسلية . . وتوقظ فيه أحاسيس الشبق والشهوة وتلق به فى أحضان الجنس الآخر . . فيسعى إليه ليصطدم بالحلال والحرام والتقاليد والعرف والأخلاق والدين والأصول ومايجب ومالايجب ومايجوز ومالايجوز . . وتكون نتيجة هذا الصدام . . أن يدفن كل رغباته غير المشروعة فى عقله الباطن . .

وتظل هذه الرغبات صاحية لاتموت رغم الكبت . . تظل مدفونة بالحياة . . تتمطأ بين وقت وآخر أثناء النوم لتعيش فى الأحلام بأسماء رمزية . . الذكورة برموزها . . الثعبان والشجرة والسكين والعصا والمظلة . . والأنوثة برموزها . . الدائرة والكهف والزجاجة والصفيحة والباب وعلبة المجوهرات . . والجنس برموزه الركوب والطيران والجرى والتسلق والسباحة والرقص .

كل الأحلام رموز جنسية . . ومحاولات مقنعة للارتواء الجنسى . . ولإشباع الرغبات المكبوتة .

والهستيريا والأمراض العصبية هى ظهور هذه المحاولات الرمزية فى اليقظة بدلا من اقتصارها على الأحلام .

وكل مايحدث لنا فى صبانا وشبابنا ورجولتنا من قلق وعقد ومعاناة نفسية . . سببه كبت رغباتنا الطفلية وبعثها فى صورة عصابية غير واعية .

ولعلاجها يعمد الطبيب النفسانى إلى جعلها واعية مدركة . وحينما يدرك المريض إزدواجه والصراع المحتوم فى نفسه بين رغباته الباطنة ورغباته الواعية . . يشفى .

الحياة كلها جنس فى جنس .

والفن ماهو إلا تسام بالجنس .. وارتفاع به .. وطاقة الخلق الفنى هى طاقة جنسية ارتفع بها صاحبها عن استدرار إعجاب امرأة واحدة إلى استدرار إعجاب كل النساء .

والانفعالات الدينية مشتقة كلها من مخاوف الطفولة .

الطفل الذى يعشق أمه ويكره أباه يتخذ من هذا الأب مثلا أعلى يقلده فى الوقت نفسه . وهذا المثل الأعلى الذى يخافه ويتمثّل به فى الوقت نفسه هو بذرة الضمير .. وهو فكرة الطفل الأولى عن الكائن الأسمى .. عن الله وعبادته لهذا الأب السماوى هى اعتذاره وتكفيره عن رغبته فى قتل الأب الأرضى .

كل شىء جنسى فى جنسى .. كل الأشواق مشتقة من أشواق جنسية .. هذا كلام فرويد .

والغريب أن فرويد نفسه صاحب هذه النظرية كان يعيش فى شبه تطهّر مسيحى .

إلى هذا الحد كانت حياته تكذب آراءه .

هل يمكن أن يكون فرويد على صواب ؟

إنه يمكن أن يكون صوابا فى فترة واحدة هى فترة المراهقة حيث تشتدّ النوازع الجنسية وتتصدّر الدوافع الأخرى بحكم التحوّل الفسيولوجى ..

وهى فترة عابرة .. لايمكن أن يفسر الإنسان على أساسها .. وإلا كنا أشبه بالطبيب الذى ينظر إلى مايحدث لمريضه أثناء حمى الأنفلونزا ثم يطبقه على

كافة مراحل حياته وعلى كافة الطبيعة البشرية .

غير معقول .. ! !

ان مايحدث أثناء المراهقة .. هو اختلال هرمونى مؤقت .. ولا يمكن الحكم على الإنسان بهذا الاختلال طول حياته .! ولا يمكن إدانة البشرية بهذا الاختلال .

ومحاولة تفسير الطفل على أنه حيوان جنسى تعسّف واضح .

فاللذة الجنسية لاوجود لها عند الطفل .. وتلذذ الطفل بثدى أمه هو تلذذ جائع بالطعام .. والطفل حينما يستعيض عن الثدى بوضع أصبعه فى فمه ليرضعه .. يفعل هذا بحكم العادة .. لاأكثر .

واعتبار الخلق الفنى تساميا بالجنس .. مبالغة ليس لها سند علمى ، وحتى لو افترضنا جدلا أن الأغانى الرخيصة هى نداءات جنسية مستترة .. فكيف يمكن أن تكون سيمفونيات بيتهوفن ومسرحيات شكسبير وتماثيل رودان ولوحات جوجان وأشعار هوميروس .. نداءات جنسية .

ولماذا نتسامى بالجنس . وفى إمكاننا أن نشبع رغباتنا الجنسية مباشرة مع أى امرأة .

إن حال من يفعل هذا .. مثل حال جحا حينما قالوا له : « فين ودنك ياجحا » .. فمضى يلف يده فى الهواء ويلتوى بها إلى الخلف ليصل إلى أذنه من أبعد الطرق .

كلام غير معقول !

لو كان الدافع إلى الفن هو الجنس .. لما أضنى الفنان نفسه بمشقة

العمل الخلاق . . ولمضى إلى لذته الجنسية من أقرب ماخور . . ولو أن فكرة الضمير . . وفكرة التدين نشأت على هذه الصورة التى يرويها فرويد . . لوجب أن تنتفى الأفكار الدينية فى المجتمعات البدائية الأولى حيث كان الاختلاط الجنسى هو القاعدة . . وحيث كان تلاقح المحارم . . الأخ بالأخت . . والأم بالابن . . والأب بالبنت . . بلا عقدة أوديب . . وبلا عقدة الكترا .

والذى نعرفه من التاريخ أن الأمر على نقيض ذلك . . وأن الأفكار الدينية كانت موجودة فى هذه المجتمعات — وكانت موجودة قبلها . . وكانت من قبل ذلك موغلة فى القدم . . وأنها مرتبطة بالإنسان منذ وجد على الأرض .

إن مايقوله فرويد لايستقيم مع مانعرفه فى التاريخ . . وآراؤه لاتستطيع أن تدين هذا التاريخ .

وإذا كانت تدين أحداً فهى لاتدين سوى صاحبها . . فلاشك أن فرويد هو صاحب الخيال الجنسى الذى يرى فى كل شىء مستدير عضواً أنثوياً وفى كل شىء مستطيل عضواً مذكراً .

أما الإنسانية فهى بريئة من هذه الرؤى .

إن هذه النظرة الضيقة التى تفسر كل شىء بالجنس لايمكن أن تكون صادقة ، فالإنسان ليس عبداً لرغبته الجنسية فقط . . وإنما هو عبد لأكثر من لذة . . لذة الجنس . . ولذة الحب . . ولذة الصداقة . . ولذة الجمال . . ولذة المعرفة . . ولذة السيطرة . . ولذة القوة . . ولذة الحرية .

والسعادة هى ائتلاف هذه اللذات كلها فى حياة منسجمة . . وفى نظرة رحبة واسعة الأفق .

والتدنى الجنسى لايمكن أن يكون وسيلة للصحة النفسية وللخلاص من القلق والعقد والأمراض العصبية . . والعكس هو الصحيح فالمشاهد أن أصحاب المزاج الحيوانى وعبيد الكاس والطاس ومحترفى الليالى الحمراء الشبعانين بالليل والنهار هم فى الحقيقة أصحاب الشخصيات الرخوة المريضة القلقة .

أين ملامح الصحة النفسية فى مثال فاروق وأشباهه من الملوك والأمراء . . وكل منهم يجد رغبته قبل أن يتلفظ بها . . وكل منهم شخصية محلولة رخوة . . ومايقال فى الفرد يقال فى الأمة التى تنهار وتتفكك حينما تتخمها اللذة .

وإنما تنمو الشخصية فى الأفراد وفى الأمم بتربية الإرادة . . بالتحكم فى النفس . . وكبح الرغبة ، بهذا وحده تنمو الشخصية السوية القادرة .

وإذا كانت كلمات فرويد تبهر القارئ المراهق لأول مرة . . فإنها على مر الزمن تفقد سحرها كلما خرج هذا المراهق من مراهقته . . وشرع ينظر إلى الدنيا نظرة جديدة واسعة .

وهو دائماً ينتهى به المطاف إلى الشك فى فرويد .

وهو دائماً شك فى محله .

السرّ

الطبيعة يكتنفها السر .

إنها ليست كما تبدو على السطح بالنظر الساذج الموضوعى . . سماء الليل المرصعة بالنجوم ليست كما تبدو مجرد ملاءة سوداء عليها نقط فضية .

إن فيها عمقًا واستسرارًا .

والبحر ليس مجرد حوض ملىء بالماء المالح .

إن فيه هو الآخر . . عمقًا . . ورهبة . .

إن رؤيته وهو يجيش ويتلاطم . . تهزّ النفس .

الطبيعة أعمق من مجرد كونها خريطة . . ومسطحات ممدودة . . وشكلا جغرافيًّا .

إن فيها عمقًا كالعمق الذى نراه فى عين وحش كاسر مذبوح يتألم .

إن الوصف الموضوعى لماء البحر بأنه ماء مذاب فيه سلفات صوديوم وسلفات مغنيسيوم وكلوروبوتاسيوم . . إلخ . . إلخ . . وصف مضحك .

هناك نوع عميق جداً من التخاطب . . بين الإنسان والإنسان . . وبين الإنسان والطبيعة . . يتم بدون العقل . . يتم عبر العقل . . يتم بدون نظر موضوعى . . بالإلهام . . بالرؤية الوجدانية . . والاتصال المباشر بدون وساطة الكلام . .

حاسة سادسة أو سابعة تكشف للإنسان روح الأشياء فى لحظات . . وفى ومضات خاطفة . . فيحس كأنما هذه الطبيعة الموضوعية الظاهرة للحواس ليست هى كل الحقيقة .

وإنما هناك شىء وراءها . . وأنها مجرد جسد . . مثل الجسد الممدد على مائدة العمليات . . جسد وراءه شىء .

العالم ليس ماهو عليه .

النظرة الموضوعية ليست كافية .

العلم لايفى بأغراضه فى البحث عن الحقيقة ، إنه مجرد خطوة .

الإنسان ليس مجرد بيت خربان يكفى لإصلاحه أن نقوم بعملية مكياج خارجية فندهن الحجرات بالزيت ونغطى الأرض بالباركيه .

الإنسان أكبر بكثير مما يبدو من خارجه . .

وترميمه من الخارج . . بإطعامه . . وتأمين الضرورات المادية لحياته . . وصيانته بالكساء والدواء . . خطوة هامة أولى فى طريق طويل .

ولكننا لابد أن نتجاوز هذه الخطوة .

ولابد أن نتجاوز أنفسنا . . وأفعالنا . . ونصعد على عقولنا . . وننظر عبرها . . عبر مايبدو من حدود موضوعية أمامنا . .

إن الحقيقة وراء . .

وراء كل هذا . .

إن كل ماهو واضح ومحدد ومفهوم فى هذه الدنيا لايدل عليها . . وإنما يدل على غرورنا فقط .

إن أكثر الأشياء دلالة على حقيقة هذه الدنيا هو جانبها المحجوب الخفى الحاضر فى وجداننا الغائب عن حواسنا .

إن كل مايبدو للحواس له دلالة رمزية فقط إنه مجرد شفرة للحقيقة .

إن الكثرة التى نراها حولنا كثرة رمزية أكثر منها كثرة حقيقية .

وحينما يأخذ العقل بهذه الجزئيات التى يراها . . ويقف عندها . . يضل . . يتوه . . فهناك ألف مليون مليون مليون شىء مختلف فى الدنيا ومع ذلك فالاختلاف ظاهرى فقط .

وكل هذه الأشياء المختلفة مترابطة فى سياق عضوى كأنها أعضاء جسد واحد .

عشرات الآلاف من أنواع النبات والحيوان من حشرات لزواحف لطيور لزهور . . هى فى الواقع عشرات الآلاف من التباديل والتوافيق فى مادة واحدة هى مادة البروتين فى سباق زمنى طويل من التطور والنشوء والارتقاء .

الحركة والكهرباء والحرارة والضوء والصوت والمغناطيسية جميعها شفرة لشىء واحد . . ودلالات رمزية لحقيقة واحدة . . ومترادفات لغوية لمعنى واحد . . هو الطاقة .

مايبدو لنا تكاثرًا هو فى الحقيقة واحد .
شىء واحد يكشف لنا عن وجوده بملايين الرموز . . والرموز . .
التاريخ قصة رمزية مسلسلة .

إن كل فصل تاريخى بذاته عمل فاشل لايوجد مايبرر مابذل فيه من دم وتضحيات .

التاريخ عملية ثورية تفشل دائمًا فى بلوغ أهدافها . . كل عصر يحمل بذور فنائه فيه . . ومع ذلك فأحداث التاريخ الفاشلة لها دلالتها . . ودلالتها تقوم عبرها . . وعبر نهايتها .

معنى التاريخ فى المستقبل . . وليس فى الحاضر . . ولا الماضى . . فى ملكوت المستقبل الذى يحلم به الإنسان . . فى الحرية التى يحاول تحقيقها .

فى التاريخ القديم حطم إبراهيم أصنام الجاهلية .

وفى التاريخ الحديث حطّمت الشيوعية صنم رأس المال . . وأقامت صنمًا أعتى اسمه . . الدولة . . الحكومة . . وهى كأى حقبة تاريخية تحمل بذور فنائها فيها . تحمل بذرة الفوضوية التى سوف تحطم صنم الدولة وصنم الحكومة .

والتاريخ ماض فى تسلسله .

والماضى لايموت . . إنه يبعث فى الحاضر بألف صورة وصورة . . رموز . . رموز . .

الواقع رموز . .

وبدون هذا الفهم الرمزى للواقع يبدو الواقع كثيفًا غليظًا . .

إن استشفاف الرموز والمعانى من الواقع الغليظ الكثيف الجاف يخفف من جفافه وغلظته ويضيئه .

وبدون هذه الرؤية الوجدانية للواقع يصبح الواقع كابوسًا . . الرؤية الموضوعية تجعل من الواقع كابوسًا يجثم على الحواس . . وتجعل من مفردات الواقع حقائق نهائية . .

والإدراك لايتعامل مع الواقع على هذا الأساس . .

الإدراك يخطو عبر الواقع ويتعالى عليه ويبحث عن معناه . . وراءه . . خلفه . .

إنه يتعامل مع الوقائع باعتبارها حقائق ناقصة .. يبحث لها عن معنى . .

هل جرّبت البنج الموضعى ؟ . .

هل جلست على كرسى طبيب الأسنان وفتحت فمك وأسلمته نفسك ليحقنك بالبنج . . ثم بدأت تتفرّج عليه وهو يقتلع ضرسك من جذوره ويخرجه بيده مغموسًا بالدم . . وأنت تتفرج عليه فى فضول وكأنه ضرس رجل آخر . . وقد مات شعورك تمامًا .

إن منظر الجراح وهو يحاصر الجلد بالبنج ثم يقصّه فى هدوء كأنه يقص قطعة من الصوف الإنجليزى . . منظر غريب . . والأغرب منه منظر المريض وهو يتابع هذه العملية فى دهشة . . وينظر إلى جلده والمقص يقطع فيه بلا ألم . . وكأنه جلد رجل آخر لايعرفه . . وينظر إلى جسمه وكأنه ليس جسمه . . وينظر إلى نفسه . . وكأنه شىء آخر غير ماهو عليه .

إنه يسأل نفسه .

من أنا . . ؟

أنا لايمكن أن أكون ذلك الشيء الذى يقطعه الطبيب ، ويقصّه ويرقّعه .

أنا لست ذلك الجسم الذى يبتره الجراح . . أنا لست الشعور الذى مات .

أنا لست موضوع تلك العملية .

أنا مجرد متفرج على ذلك الشيء الموضوع على المائدة .

وهو إلهام صحيح تماماً .

إن الإنسان ليس موضوعاً . . ولايمكن إحالته إلى موضوع ينظر إليه من خارج كما ينظر إلى خريطة جغرافية .

الإنسان هو الآخر له أعماق « جوّانيه » لاتحيط بها النظرة الموضوعية .

الإنسان داخله نهر من الأفكار والمشاعر متجدد متدفق بغير حدود نهر من الأسرار . . غير مكشوف لأحد سواه هو . . ولاشيء يبدو من هذا النهر من خارجه . . ولايمكن أن تحيط به نظرة موضوعية .

وأنت حينما تتخذ من الإنسان موضوعاً . . يفقد فى يدك الحياة . . ويفقد الوحدة . . ويتفكك ويتحول إلى جسد . . إلى مادة تشريح . . إلى شيء . . أى شيء إلا الإنسان الذى تقصده .

واقع الإنسان الملموس المرئى الظاهر . . ليس هو الإنسان . . إنه إفرازه . .

والعلم يتحسس الإنسان من خارجه فقط . . يفحص بوله ودمه ونخاعه

وعرقه ولعابه . . يفحص إفرازاته .

وهو لايستطيع أن يخطو عبر هذا المظهر . . إلا بالاستنتاج . .

ولكن الفن يستطيع أن يدخل الإنسان عبر العقل والمنطق ليخاطبه من داخله . . ليخاطب مكمن الأسرار فيه مباشرة وكذلك الدين .

والحب . .

لحظة الحب والوجد . . مثل لحظة الكشف والإلهام . . تتكاشف فيها القلوب بلا وساطة .

السر يخاطب السر .

وأنا أؤمن بالعلم .

ولكنى لاأكتفى به . .

وأؤمن بحواسى الستة ولكنى لاأكتفى بها .

وأعتقد أن الطبيعة يكتنفها السر . .

وأن الحقيقة مغلقة أمام كل محاولة لكشفها بالرادار والترمومتر والمجهر وحده .

وأن الطبيعة فى ضوء العلم وحده كابوس حقيقى .

والحياة بالمنطق وحده سخافة .

والواقع بالنظرة الموضوعية مسطح تماماً .

الطبيعة بدون شعر . . وبدون موسيقى غير طبيعية .

هل هى رومانتيكية الرجل الشرقى ؟ ..

نعم أعتقد أنى رجل شرقى تماماً .

ولاأعتذر من أجل شرقيتى .

المعجزة

هل تصدق أن الأرض التى تقف عليها يخيل إليك أنها ثابتة . . تنطلق فى الفضاء بسرعة ٦٥٠٠٠ ميل فى الساعة أى ألف ضعف سرعة أوتوبيس سريع . . وأنها مجرد فرد بين أفراد مجموعة شمسية تدور كلها حول الشمس .

وأن المجموعة الشمسية كلها ماهى إلا واحدة من عدة مجموعات تؤلف فيما بينها مدينة كبيرة اسمها المجرة تضم أكثر من مائة ألف مليون نجم تدور كما تدور عجلة هائلة حول نفسها فى الفضاء . . وأن الشمس تقطع الدورة الواحدة حول هذه المجرة فى ثلاثمائة مليون سنة علماً بأنها تجرى بسرعة ٧٢٠٠٠٠ ميل فى الساعة أى عشرة آلاف ضعف سرعة الإكسبريس .

وأن المجرة ليست إلا واحدة من عدد عديد من المدن النجمية كلها سابحة فى الفضاء . . وعندنا من هذه المدن النجمية مليونا مدينة كل منها مثل المجرة حجماً وضخامةً . . وكل منها تبعد عن الأخرى بمسافات هائلة شاسعة تبلغ من بعدها أن رسالة لاسلكية مرسلة من مدينة نجمية إلى أخرى تحتاج إلى

ستة ملايين من السنين لتصل ويصل ردها . . أى أن ردها يصل بعد انقضاء ستين ألف جيل من الأجيال البشرية .

وأقصى هذه المدن النجمية المرئية يبلغ من بعدها عنا أن ضوءها يستغرق ١٤٠ مليون سنة ضوئية ليصل إلينا (الضوء يقطع فى السنة الضوئية ٦ مليون مليون ميل) .

ولقد أثبت أينشتين أن هذا الفضاء الكونى الهائل الذى تجرى فيه كل هذه الكواكب والنجوم محدّب . وأن شكله منحن . . وأنه ينحنى على نفسه ويتكوّر كما يتكور سطح الأرض . . وأنه أشبه شىء بفقاعة صابون هائلة فى غشائها الرقيق توجد جميع المدن النجمية سابحة سائحة فى دورة مستمرة .

وأن هذه الفقاعة الكونية فى حالة تمدد مستمر والنجوم تجرى مبتعدة عنا فى سرع خيالية . . والضوء يستغرق فى سياحته حول محيط هذا الفضاء الخرافى ٥٠٠٠٠ مليون سنة ليكمل دورة واحدة . ولكن لأن تمدد الكون أسرع من سرعة الضوء فإن شعاع الضوء الذى يخرج من المدن النجمية على أطراف الكون لا ولن يصل إلى عيوننا إطلاقاً . . ولن تحيط أبصارنا بأطراف المعمورة الكونية لأنها تتمدد بسرعة أكبر من أن يلحق بها الضوء وينقلها إلى حواسّنا . . فنحن محكوم علينا بألا نراها .

وفى الحسابات الفلكية الأخيرة أن مجموع مادة الكون التى أمكن رؤيتها أو استنتاجها تبلغ تقريباً مقدار ١١٠٠٠ مليون مليون مليون شمس .

وفى الكون من النجوم مايفوق حبات الرمال فى الصحارى عدداً .

ومتوسط حجم كل نجم حوالى مليون مرة حجم الأرض .

وبعض هذه النجوم مثل نجم الجبار حجمه أكبر من الشمس ٢٥ مليون مرة .

وليس معنى ذلك أن الكون مزدحم بالنجوم . . فالحقيقة أن الكون مخلخل جدا وأغلبه فضاء خلاء . . وثلاث نحلات تائهة فى فضاء أوربا أكثر إزدحاماً من النجوم فى فضاء الكون .

والفضاء يزداد لأن النجوم تتباعد . . وكأن قبضة خرافية تنثرها نثرًا فى جميع أقطار الكون .

والكون يفقد مادته باستمرار . . ويفنى . . ويبرد شيئًا فشيئًا .

والشمس تفقد كل يوم ٣٥٠٠٠٠ مليون طن من وزنها يتحول إلى أشعة . وهى لهذا تضمر وتنطفئ رويداً رويداً . وتضعف جاذبيتها على كواكبها وسياراتها فتنطلق هذه متباعدة عنها .

وفى الفضاء البعيد تبلغ درجة البرودة ٤٨٠ درجة تحت الصفر . . الزمهرير . . وهى درجة تتجمد فيها كل السوائل . . وكل الغازات . .

هل أصابك الدوار من تخيل هذه الأرقام !

هل أصابك الهلع وأنت تتصور مكانك فى هذا التيه المخيف كذرة من اللاشىء فوق هباءة تافهة اسمها الكرة الأرضية بين ملايين ملايين الملايين من النجوم المردة والسدم العملاقة والمدن الفلكية الجبارة السابحة فى فضاء غريب منحن كفقاعه حول العدم .

هل أغمضت عينيك وغبت عن وعيك وأنت تعد وتعد . . وتتصور هذه المتاهات العجيبة .

لقد نسيت ماهو أعجب من هذه الإحصائية كلها .

نسيت عقلك . .

إن عقلك . . يفوق كل هذه المتاهات . . لأنه وسعها . . واحتواها فى مداركه . . عقلك أدرك الكون . . وتفوق على الكون لأنه أدرك نفسه أيضا . .

والعبرة ليست بالأحجام . . فكل حاملات الوراثة (الجينات) فى جميع المخلوقات البشرية منذ آدم إلى الآن لاتملأ فنجانا . . ومع هذا فهى على ضآلتها تحتوى على كل الخصائص التى أنتجت الآداب والفنون والحضارات بكل تصانيفها وحوادثها . . فيها مستقر المواهب والعبقريات والنبوءات والفاعليات البشرية بكل خيرها وشرها .

والذرة على صغرها فيها طاقة تهدم جبلا .

وبالمثل لااعتبار للأطوال الزمنية . . فرب لحظة واحدة مليئة يحدث فيها من الأحداث ماتنوء به السنون الطوال .

القيم لاتقدر بالموازين والمكاييل وتقاس بالأطوال .

ومستقر القيم فى وجدان ذلك الإنسان الذى يخيل إليك أنه شىء تافه حينما تقيسه إلى الكون .

معيار الحقيقة وصورتها فى قلبه .

المثل العليا فى خياله .

المستقبل رؤيا من رؤاه .

الحب والأمل والحرية وأحلامه .

قدس الأقداس روحه .

اللانهاية بين جنبيه .

الهوّة التى فى داخله أعمق من الكون بما يحتويه من نجوم وأفلاك . . فهى هوّة بلا قاع . . بلا سقف . . غير محددة غير متحيزة فى مكان . . غير ممتدة فى زمان . . وإنما هى ديمومة . . وحضور شعورى . . أشبه بالحضور الأبدى .

فهو يعيش فى آنيّة دائمة . . يعيش فى « الآن » دواماً . . وينتقل من آن إلى آن . . وكأنه يمشى على وهم . . كل خدع الحواس . . كل صور العالم الفانى حوله لاتهمه . . كل التغييرات التى تكتنف العالم المادى لاتنطلى عليه . . فهو يستشعر نوعاً غامضاً من الاستمرار .

إحساسه بكيانه يلازمه طول الوقت فلا يكاد يشعر بأن هناك وقتاً إلاّ حينما ينظر مصادفة إلى ساعة معصمه . . أو حينما يفطن إلى انصرام النهار حوله .

إحساسه الداخلى يصوّر له ديمومة مستمرة .

وعيه الداخلى ينظر دواماً إلى الأشياء وكأنه من معدن آخر غير معدنها . . معدن دائم لايجرى عليه حادث الزمان والفناء . . فهو موجود ليس له بداية . . وليس له نهاية .

إنه هنا . . كان دائماً هنا . .

وفى الأحلام حينما تحمله أجنحة الوهم إلى الأماكن البعيدة التى لم يضع فيها قدماً يخيل له أنه رآها من قبل . . وأنه كان هناك .

وفى لحظات الصفاء . . يحس كأنما يستشف الغيب . . ويحدس المستقبل . . وكأنما كان فى ذلك المستقبل . . كأنه كان يضع قدمه هناك فى الغيب المحجب .

كل حواجز الزمن تسقط فى مجال رؤيته الروحية . . فيرى فى لمحات الإلهام عبر هذه الحواجز . . وكأنما انفتحت له طاقة يطل منها على الحقيقة الأبدية .

ولكنها لمحات . . مجرد لمحات كومض البرق الخاطف . . لايكاد يطل منها حتى تعود حجب الزمان والمكان فتنسدل كثيفةً على عينيه ، وتشمله آليّة الواقع وتلق به إلى هوّة التكرار وكأنه أصبح واحدًا من هذه الذرات المادية . . أو الأجرام الفلكية التى تدور فى عماء فى مجالاتها المرسومة بلا إرادة لتكرر دورة مقدرة لها . . ولافكاك منها . . وتقعد به غلظة المادة . . وكأنها المرض يجعل كل شىء فيه ثقيلا . . غليظًا .

هذا هو الإنسان العجيب الذى يجمع بين صفات المادة . . وبين صفات الروح .

هذا هو الإنسان المعجز اللغز الذى يثيرنى أكثر مما تثيرنى كل هذه الملايين من النجوم والأكوان المترامية .

هناك فى حشوته الحية تحت عظام رأسه . . فى جمجمته وقلبه . . وفى نبضاته . . وفى وجيف أعصابه . . يكمن السر الأعظم . . الذى تتضاءل إلى جواره كل هذه الأكوان . . وكل هذه الذرات التى تدور فى عماء الآلية والتكرار . .

سرّ الجمال

الجمال فزّورة . .

إنه حقيقة بديهية تشرح نفسها بنفسها للعين بدون منطق وبدون واسطة وبدون أسباب . .

فالمنظر الجميل يخطف عينك بلمحة واحدة . . فتهتف . . الله . . بدون تفكير وبدون أسباب .

والوجه الجميل يخطف قلبك فتقف تحملق فى بلاهة وفمك مفتوح . . وتهتف الله . .

والموسيقى الجميلة تغمرك بالنشوة والطرب وتأسر حواسّك من قبل أن يفيق عقلك على الأسباب . . ويفهم السر . .

وإذا سألت نفسك . . ماالسبب . . ما السر . . ما الحيثيات التى جعلت من الشىء الجميل شيئا جميلا مطربا . . فإنك سوف تتعب . .

هل الشىء جميل لأنه نافع ؟ !

إن الباخرة أنفع من القارب الشراعى ومع هذا فالقارب الشراعى أجمل .. والسبورة السوداء التى يتعلم عليها الأطفال أكثر نفعا من اللوحة الجميلة .. ومع ذلك فاللوحة أجمل ..

وحبة القمح أنفع من اللؤلؤة . ومع ذلك فاللؤلؤة أجمل .. وجناح الفراش ليس فى حاجة إلى كل ما عليه وشى وزخرفة ونمنمة .. والطبيعة لم تكن بحاجة ملحّة لتنقش كل هذه النقوش .. ونحن لم نكن بحاجة إلى هذه النقوش .. ولكننا مع هذا نفضل هذه النقوش ونراها أجمل ..

إن السر ليس المنفعة ..

أيكون سرّ الجمال فى القيمة الخيّرة للأشياء الجميلة .. لا .. إن الأخلاق مهما بلغت من السمو لا تستطيع أن تجعل من المرأة القبيحة ملاكاً .. إنها تصبح جميلة فى عين العقل وحده .. وقد يتزوجها الرجل من باب النصاحة والتعقل .. ولكن ليس من باب الإعجاب بجمالها ..

وأخلاقية العمل الفنى وحدها لا يمكن أن تجعل منه عملا فنياً جميلاً .. إنها تجعل منه عظةً وخطبة .. وغالباً ما تكون عظة ثقيلة وخطبة سمجة بعيدة كل البعد عن الجمال .. وعلى العكس من ذلك نقرأ شكسبير فنجد الشرور والآلام وقد كساها الفن أثوابا باهرة من الجمال ..

أيكون الصدق هو سر الجمال .. ؟

إن الصدق غالباً ما يكون خشناً يصدم الحواس ..

الصدق فى حاجة دائما إلى سياق حلو وأسلوب جميل ليشرحه ويرسمه ويغنيه .

إن الجمال شىء آخر غير الصدق ..

إنه قيمة تُطلب لذاتها .. وبدون حاجة لقيمة أخرى تبررها

إنه لذة صافية تبرر نفسها بنفسها .. وشرارة تشعل فى نفوسنا النشوة والسعادة بدون وساطة .

وسرّ الجمال فى لحظة الاتصال بين نفس وموضوع .. بين عين وأذن وقلب .. وبين رسم جميل أو لحن عذب أو منظر أخاذ ..

والجمال لايوجد فى الرسم نفسه .. ولافى اللحن بدليل أن الآذان البليدة .. والعيون البدائية قد يفوتها مافى اللحن ومافى الرسم .. وقد تنظر وتسمع فلاترى ولاتسمع شيئاً .

سر الجمال فى النفوس التى ترى وتشاهد وتصغى ..

ولحظة الإحساس بالجمال هى لحظة اهتزاز ورنين وانسجام .. وانعطاف بين النفس وبين موضوع اكتشفت فيه النفس ذاتها وأسرارها وحقائقها الدفينة ..

إنها حالة من التعارف بين المثل العليا القائمة فى النفس وبين الرسوم التى تشرح هذه المثل وتجسّدها وترسمها .. وحالة من النشوة تتّحد فيها النفس بموضوعاتها .. وتحصل من هذه الوحدة على الراحة واليقين ..

إن الموضوع الجميل هو وثيقة من العالم الخارجى بأن النفس على صواب .. وأن خيالاتها ومثلها وقيمها الباطنية حقيقة ..

ولكن ماحقيقة هذه المثل ؟ ..

ماحقيقة هذه التركيبات المثالية من الشكل واللون والصوت والنغم

الباطنة فى نفوسنا ؟

إنها تحصيل عملية طويلة من الانتقاء والحذف والإضافة . . عملية تركيبية تأخذ محسوسات الواقع وتصنع منها كيانات غامضة مثالية تحتفظ بها فى الخيال والذاكرة .

فى ذكراه كلٍّ منّا صورة مثالية للغروب والشروق . . والطفولة . . والأنوثة . . والرجولة . . هى محصّلة من كل التجارب الواقعية وكل المدركات الحسّية . . أعملت فيها النفس الحذف والإضافة والتعديل بما يتفق مع آمالها وأحلامها .

فى خيال كل منا نموذج غامض لحصان يتمنى لو اقتنى مثله . . ولامرأة يتمنى لو قابلها . . ولرجل يتمنى لو صادقه . .

والفنان هو الذى يجسّم هذه الأحلام . . ويقدّمها للعين والأذن والقلب . . فتطرب وتنتشى وتشعر بهذه اللذة النادرة . . لذة العثور على أحلامها وأمنياتها . . وصورها الدفينة .

والفنان هو الوحيد الذى يستطيع أن يجسم هذه الأحلام . . لأنه الوحيد الذى يشعر بها واضحة جلّية مكتملة فى وجدانه . . أما الشخص العادى فيشعر بها غامضة مهزوزة يكتنفها الضباب . .

النفس إذن هى المرجع والأرشيف الذى يحتوى على مراجع الجمال وأصول الفتنة ، وهى التى تحتوى على شفرة العلاقات الجمالية كلها . . ومشكلة الفنان هى فى محاولته الدائبة لاكتشاف هذه الشفرة . . والتعرف على هذه العلاقات .

فالنغمات الموسيقية فى تتابعها . . هى مجرد استطراد لعلاقات . . وأبعاد . . وأطوال مجردة من الذبذبات .

إنها تشبه لوحةً هندسية فراغية تتشكّل فيها الخطوط والأبعاد تبعاً لعلاقات معيّنة . . أدرك الفنان بإحساسه أنها علاقات جميلة . .

كيف أدرك الفنان هذا ؟

هنا اللغز . .

إنها الموهبة التى تجعل الفنان على صلة وثيقة بنفسه وبكنوزه أكثر من صلة الرجل العادى . والمكاشفة الداخلية التى يمتاز بها الفنان عن سائر خلق الله . .

إنها نوع من الجلاء البصرى الذى يتحدث عنه الروحانيون . . ولكن الفنان لايحضر بها روح أحد . . وإنما يحضر روحه هو شخصياً . .

وجورج سانتايانا الفيلسوف الأسبانى فى كتابه . . « الإحساس بالجمال » . . بعد رحلة طويلة من ٣٠٠ صفحة يبحث فيها سر الجمال . يصل إلى هذه النقطة ثم يتوقف . فلا أحد يعرف الحقائق الباقية التى تكتنف السر . لاأحد سوى الفنان نفسه . الذى يحل هذا اللغز شيئاً فشيئاً . . على مدى اللانهاية من عمر الدنيا . . وعمر الفن . .

أنشودة للإنسان

صباح الاثنين ٣٠ من أبريل ١٩٦٢ . رياح الخماسين تكنس شوارع القاهرة وتثير زوبعةً من الغبار تسدّ عين الشمس وزجاج النافذة يبدو كأنه زجاج انجليزى مصنفر لايظهر من خلفه شىء . . لاشىء سوى التراب فى كل مكان . . على الكراسى . . على المفارش . . على الأرض . . فى الأكواب . . فى الأطباق . . فى حلقى . . فى صدرى . . وأنا أسعل من التراب ومن الزكام ومن الرشح الذى انتقل من أنفى إلى كل ممراتى الهوائية .

إحساس بالثقل والاختناق والرطوبة والبلل والاشمئزاز يشيع فى بدنى كله . . كل عضو فى جسمى أحس بثقله وحركته على انفراد كأنه عضو غريب ملصق بى .

اليوم هو شم النسيم ؟ ؟ ! !

ذروة الربيع والجمال والاعتدال والخضرة والتفتح . . تصوروا ؟ ! خطأ مطبعى ؟ ! . . ربما . .

تفتحت دمامل الطبيعة بدلا من ورودها .

إن جمال الطبيعة ليس شيئًا فى الطبيعة . . وإنما هو شىء فى الإنسان . . هنا أمامى . . فى الشريط الرفيع الأخضر وسط الميدان فى المربع الصغير من الحشيش . . حيث البنات والأولاد والشبان والرجال والأطفال متماسكون بالأيدى يرقصون . . ويغنون . . ويحتفلون . . برغم التراب . . وبرغم الجو الهباب . . فى محاولة يائسة للسعادة . . يعطسون . . ويرقصون . . ويبلعون التراب بالنكت والمثلجات . . ويرطبون اللهيب بلمسات الحب ونظراته الحانية . . وينتزعون من الطبيعة الظالمة لحظات الرحمة والتودّد .

الأب الذى عمره ٦٠ سنة يكاد يغمى عليه من الحرّ . . ولكنه يضحك . . ويغتصب ابتسامة يبللها بريقة الجاف . . من أجل أولاده . . حتى لايفسد عليهم العيد . .

الأم الحامل تلهث . . وتفرك أجفانها من التّراب . . وتصفّق لابنها الذى يغنّى . . وهى لاتسمعه . .

الاطفال يتشقلبون وهم يسبحون فى عرقهم . . ورءوسهم معفرة وثيابهم مغبرة . . كأنهم عائدون من ميدان قتال . . أسرى . .

هنا الإنسان . . جميل . . أجمل من الطبيعة ألف مرة . .

جميل فى حُبه . . جميل فى عذابه . . جميل فى طفولته . . جميل فى أبوّته . . جميل فى أمومته . . جميل فى شموخه جميل وهو يرقص . . ولاينحنى . .

جميل فى صراعه مع الطبيعة محاولا أن يكسر قيدها . . أمام جهنم

محاولا أن ينتزع ضحكة . . إبتسامة . . الرياح تسفى الأتربة فى حلقه وتسد عليه منافذ وجوده فيعطس بشدّة كأنه يبحث عن ثقب فى جلده يفلت منه . .

أجمل من كل الورود جميعها . . ذلك الإنسان الذى يتفتح عندما يريد . . وبرغم كل شىء .

ما الطبيعة . . ؟

الطبيعة ضغط . . قوانين . . ضرورات آلية تطحن . . أتوماتيكية تكرر نفسها فى عماء . . الشمس يتواتر عليها الشروق والكسوف فى آلية . . وكأنه لاجديد . . وكأنه لاجديد يمكن أن تضيفة تلك الشمس ذات الجلالة إلى مراصد حلوان ! .

الطبيعة ؟ !

لا . . لم تعد غاية المفكر . . هى الطبيعة ! .

وإنما أصبحت غايته . . الإنسان .

فهنا يجد الطبيعة فى قمّتها . .

هذا الإنسان فيه الطبيعة . . فيه ترابها ومعادنها وأملاحها وماؤها وفحمها وطينها . . وقد استوت جميعًا فى أبهى نظام . . وأحلى صورة . . وفيه أيضًا قوانينها . . وفيه أيضًا قوانين عالية على قوانينها . . فى القصور الذاتى . . وفيه مايتحكم فى ذلك القصور الذاتى . . وفيه قانون الجاذبية . . ومايرتفع به ضد الجاذبية . .

وفيه الحيوان . . ومايلجم الحيوان . .

وفيه نفسه . .

ومايرتفع به فوق نفسه .

إنه المخلوق الوحيد الذى يكاشف ذاته من الداخل ويراقب ذاته من الداخل . .

محراب الجمال فى داخله حيث يحب ويكره ويستقبح ويستجمل . . إنه أجمل من الجمال لأنه يحكم عليه . .

لقد بحثت عن مفاتن الطبيعة فوجدتها فى داخل الإنسان . . ولم أجدها فى الحدائق الغناء والورود الزاهرة . .

نزهتى المفضلة . . أن أذهب إلى قلب إنسان آخر أتظلل فى صداقته وأرتوى بكلماته . . وسفريتى المحببة أن أبحث عن روح مؤنسة لاعن بلد جديد . .

إن البلاد لاتختلف كثيراً بعضها عن بعض . . الشوارع تضيق فى بعض الأماكن . . وفى أماكن أخرى تتسع . . وهى أحيانا قذرة . . وأحيانا نظيفة . . وأحياناً مرصوفة . . وأحياناً مترِبة . . ولكنها كلها شوارع . .

والبيوت بعضها ذوات قباب وبعضها ذوات أبراج وبعضها ذوات أسقف منحدرة . . وبعضها أكواخ . . ولكن كلها بيوت . .

اختلاف الأماكن من بلد إلى بلد آخر لايعنى كثيراً وإنما اختلاف الناس هو الذى يعنى أكثر . . لأننا نعاشر الناس ولانعاشر الجدران . .

وأنت لاتسافر حينما تغير مكانك . . ولكنك تكون قد سافرت حينما توسع من ثقافتك . . وتثرى من عاطفتك وتجدد من روحك . .

خفقة قلبك لامرأة . . أو صداقتك لرجل . . أو قراءتك لكتاب . . هى أسفار حقيقة . . وميلاد جديد لك . . وتاريخ جديد لحياتك وتفكيرك .

لأن الإنسان هو محطة الوصول الحقيقية . . وليست البلدة ولا الإقليم . .

ومن أجل الإنسان يخضع كل شىء وينتظر . . حامل القيم جميعها والحارس عليها . . والأمل الوحيد لتلك الطبيعة العريانة الجدباء العمياء . . هو الإنسان .

هل أهنت الربيع فى موسمه ؟ ! . .

لا . . بل حييت الربيع فى أجمل إنتاجه . . فى شجرته الدائمة الاخضرار . . الإنسان .

الإنسان العادى

كلّ واحد منا له شخصية مفردة يتميز بها مثل بصمة أصبعه لا يشاركه فيها أحد ..

لا يوجد إنسان عادى .. لا يوجد نموذج مثل « الباترون » الذى يقص عليه القماش ليفصل منه آلاف الموديلات المتشابهة .

وإنما كل واحد موديل مبتكر فى ذاته .. نمط فريد .. نسيج وحده ليس له شبيه .. وليس له ثان .

كل واحد ملامحه تجعل منه فلان الفلانى بالذات الذى ينفرد ويمتاز بأشياء لا توجد فى أحد غيره .

ليس صحيحاً أن الله يخلق من الشبه أربعين .. وإنما هناك دائماً فروق طفيفة فى اللون .. فى البشرة .. فى النظرة .. فى اللفتة .. فى الشخصية .. فى التفكير .. تجعل تشابه اثنين وتطابقهما مستحيلاً .. تجعل كلاً منهما قالباً معيناً .

لا يوجد شىء يمكن أن نسميه قالباً عاديًّا للشخصية الإنسانية .. فالشخصية الإنسانية دائمًا مبتكرة .. دائمًا جديدة .. دائمًا خاصّة بصاحبها .. غير قابلة للتعميم .

وما نسميه « بالإنسان العادى » .. هو فى الحقيقة نموذج فى الذهن .. صورة فى الخيال مجردة من الصفات التى تستوقف نظرنا .. فالوجه العادى مثلا هو وجه .. مش مطاول .. ومش مدور .. ومش مربع .. ومش مسحوب .. ومش مبطط .. لكن هو إيه ؟ ! .. شكله إيه ؟ .. لن تستطيع أن تشبهه بأى وجه تعرفه .. لأن كل الوجوه فى الواقع غير عادية .

كل وجه فيه شىء يجعل منه وجهاً مميزاً .

وبالمثل شخصياتنا .. كل شخصية فيها امتياز .. فيها جانب تفوّق .. فيها استعداد لشىء .. فيها بذرة عبقرية .. ولكن هذه البذرة لا يفطن لها صاحبها ولا يكتشفها ولا يدركها فتضيع عليه .. ويخيل إليه أنه إنسان عادى .

ونحن فى العادة نموت قبل أن نكتشف مواهبنا وقبل أن نتعرّف على مميزاتنا .. نموت بحسرة أننا أناس عاديون .

إن أم كلثوم كان من الممكن ألا تكتشف صوتها .. وكان من الممكن أن تضيع كأى فتاة قروية تسرح فى الحقل وتقضى حياتها تربّى الدجاج وتطعم البطّ لولا أن اكتشفها الملحنون واحتضنوا صوتها .

وكمال الطويل ضاع نصف حياته فى محاولة الغناء قبل أن يكتشف أنه ملحّن .

وعبد الحليم حافظ ضاع نصف حياته فى محاولة التحلين قبل أن يكتشف أنه مغنّ .

من قبل أن يكتشف كل واحد من هؤلاء الثلاثة موهبته كانوا جميعًا مجرد أناس عاديين .. ولكن الحقيقة أنهم لم يكونوا أبدًا عاديين .. وإنما كلّ واحد منهم كان من البداية عنده هذا الشىء الذى ينتظر معجزة الكشف عنه .. وكل واحد منا .. فيه ذلك الشىء .. فيه تلك البئر التى تنتظر الكشف عنها والدقّ عليها .. لتنبثق فى ينبوع من النعمة الإلّهية لا ينضب إلاّ بالموت .

والسرّ فى أن أغلب الناس عاديون .. أن اكتشاف الإنسان لنفسه وتعرّفه على كنوزه ومواهبه ليس شيئًا هيّنًا .. وإنما هو اكتشاف أصعب من غزو الفضاء .

وقليلون جدًا هم الذين يستطيعون أن يقوموا بهذه الرحلة الشاقة إلى داخل نفوسهم .

إنها رحلة أصعب من رحلة كولومبس وجاجارين .

إن رحلة كولومبس إلى أمريكا كانت رحلة لها خريطة وبوصلة وفيها معالم وحدود وبحر وأفق وأرض وسماء .

ورحلة جاجارين كانت فيها مئات الأجهزة والعدادات والرادارات والموازين والمكاييل والمناظير .

أما رحلة الإنسان لاكتشاف نفسه فإنها خبطة عشواء فى الفراغ .. فى أغوار نفس مظلمة ليس لها سقف ولا قاع ولا خريطة ولا معالم .

ونحن مثل حجارة الولاعة .. الطريق إلى اكتشاف طبيعتنا لا يكون إلا بالتعامل بالاحتكاك بالاصطدام بالعالم فى سلسلة من التجارب والخبرات .. بهذا وحده تنطلق شرارتنا وتتكشف ذخائرنا المكنوزة .

لنكتشف نفوسنا لابد من الخروج من نفوسنا والارتماء فى الواقع والاحتكاك بالناس والمجازفة والمغامرة والتعامل بالحب والكراهية ومعاناة الألم والعذاب وخيبة الأمل .

والمعرفة النظرية ضرورية .. المعرفة النظرية بالتاريخ وبالتطور وبالطبيعة الإنسانية وبالمجتمع .. لأننا جزء من مجتمع وجزء من تاريخ طويل ونهاية مراحل متعاقبة من التطور .. لسنا حلقات معلقة فى الهواء ، وإنما نحن بشر ننتسب إلى سلالة البشر وننتمى لمجتمع ذى تاريخ .

العلم والخبرة .. والإحساس .. والمعاناة .. والتجربة .. والجرأة على اقتحام المخاطر .. كلها أدوات ضرورية لهذه الرحلة التى نهبط فيها جوف ذلك البركان الذى اسمه نفوسنا .

وأهم من جميع هذه الأدوات .. الإلهام .. البصيرة .. والنور الداخلى الذى يدلّنا على نفوسنا فى لحظات الصفاء .

ذلك النور الذى يشبه اليد الهادية التى تأخذ بيدنا وتهدينا إلى حقيقتنا .. إن النفس الإنسانية دغل كثيف .. غابة .. كهف تختبئ فيه الأفاعى .. وفيه أيضًا إلى جوار الأفاعى .. الكنوز واللآلىء النادرة .

وأنا لا أعتقد بوجود نفوس عادية .. وأعتقد بأن كل نفس موهوبة .. وإنما هى تصبح عادية حينما يغفل صاحبها عن اكتشاف هباتها .. ويضل

الطريق إليها .. ولا يكلف نفسه مشقة البحث وعناء الاختبار ..

إنك لن تدرك مدى خوفك ولا مدى شجاعتك إلا إذا واجهت خطرًا حقيقيًا ولن تدرك مدى خيرك ومدى شرّك إلا إذا واجهت إغراءً حقيقيًا ..

إن ست البيت المقفول عليها بالقفل والترباس المحظور عليها أن تقابل رجلاً أو تكلم رجلاً والتى تخرج لابسة عباية تغطى وجهها ويديها .. مثل هذه الست تعيش وتموت دون أن تعرف مدى فضيلتها وعفّتها لأنها لم تتعرض للإغراء لتعرف ماذا ستفعل فى مواجهة الإغراء ..

إنها لم تختلط بالرجال فى محل عمل ولم تتلقّ منهم دعوات بالحب وإغراء بالقبلات والعناق .. وليس فى بيتها تليفون يدقّ كل يوم لتعرف ماذا سوف تفعل .. هل ستغلق السكة فى وجه المعاكسة أو أنها ستغلق باب غرفة النوم عليها وتسحب التليفون إلى الفراش وهات يا كلام فارغ بالساعات .

إن الاحتكاك والدخول فى تجربة هو الوحيد الذى يكشف عن أصالة الخلق وصدق المناعة وسلامة الإرادة والتصميم على سلوك بعينه ..

وأنا حينما أكون غنيًا وجميلاً ومشهورًا ورقيقًا ولطيفًا فإنى لن أستطيع أن أجد دليلاً واحدًا على أن حبيبتى تحبنى لأنه من الطبيعى أن تحب البنت أى رجل غنى مشهور جميل لطيف رقيق .. ولكنى حينما أمرض وأفقد رقّتى ولطفى وأصبح ضيق الصدر بينما تظل حبيبتى تلاطفنى وتخدمنى وتخلص لى فإنها تكون فى الحقيقة تحبنى ..

الاصطدام بالمحال ضرورى لكشف الحقيقة ..

ونحن لا نفهم أنفسنا ولا نفهم الناس إلا فى هذه اللحظات .. لحظات

الصدمة والمحال والصراع الذى نخرج منه مجروحين مصابين بخيبة الأمل والتعاسة والوحدة والغربة .. وهى بقدر ما تكون غربة بالنسبة للآخرين تكون فى الواقع قرابة وصداقة وصلة أعمق بيننا وبين أنفسنا .. وإدراكًا أعمق لحقيقتنا ولخيرنا وشرّنا ..

وكما نعرف أخلاقنا من خلال محنة السقوط والإغراء .. يستطيع الفنان أن يكتشف عبقريته من خلال اصطدامه بالعمل الفنى ومحاولته للإبداع .. ويستطيع الجرّاح أن يكتشف موهبته على مائدة العمليات وهو يصطدم بالمعضلات الجراحية ..

إن اكتشاف الإنسان لنفسه هو نتيجة لإعلان الحرب فى كل الميادين .. الالتحام بالواقع هو المرآة التى تستطيعين أن تشاهدى فيها عقلك وتتعرّفين على ملامح نفسك .. وتعرفين فى أى الأمور أنت عبقرية .. وهو نفسه المرآة التى تستطيع فيها أن ترى نفسك أنت أيضًا ..

والثقة هى دائماً فاتحة الطريق .

ثقى أنك موهوبة .. وأن الله قد خصّك بشىء .. وأنك لم تخلَق لتشبهى الملايين من أمثالك .. وإنما أنت جئت إلى الدنيا فى بعثة مقدّسة لتكتشفى جوهرتك وتصقلينها ..

وليثق كل واحد أن تحت مظهره العادى .. بذرة .. فى مكان ما .. بذرة عبقرية .. عليه أن يبحث عنها ويكتشفها ..

وسوف يكون كل شىء بعد ذلك ممكنًا ..

هذيان ليلة صيف

لو أننا نزلنا على المريخ فوجدنا جنسًا راقيًا من المخلوقات فى مصافّ الأنبياء والملائكة والسوبرمان ! ؟ .. مخلوقات سامية نحن بالنسبة لها كالقرود بالنسبة للآدميين .. مخلوقات من لحم ودم ولكن لحمها من مادة راقية أخرى غير مادة البروتين وعظامها من غضاريف رقيقة أرق من غضاريف الحمام .. ودمها من مواد ممتازة .. شربات أو لبن حليب أو سائل مشع نورانى .. ومن يأكل من لحم هذه المخلوقات يصبح محصّنًا من المرض منيعًا على الموت ... ويطول عمره حتى يصبح ألف عام .. وتتحقّق له حياة سعيدة لا يشكو فيها علّة ..

لو أننا اكتشفنا هذا ماذا يكون حكمنا على من يقتل هذه المخلوقات ويأكلها من بنى الإنسان . ؟

هل نعتبر هذا العمل إنسانية . ؟

أعتقد أن صيد هذه المخلوقات وذبحها وبيعها وتصديرها والاتجار بها

وأكلها وتعليبها وتثليجها وتحويلها إلى عصير .. ومستخلصات .. وطبخها بالصلصة .. وشيّها على السيخ .. وكل صنوف التدمير والعدوان التى يمكن أن نلحقها بها تكون منتهى الإنسانية .

بل إن ذبحها وتوزيعها فى عدالة ليفوز بها كل إنسان على ظهر الكرة الأرضية يكون واجباً أصيلاً محتماً ..

وإعلان الحرب عليها يكون هو الشهامة مجسّمة .

والموت فى سبيل صيدها وقتلها يكون هو الشهادة ..

ولن يكون فى أىّ عمل من هذه الأعمال العدوانية القبيحة مجافاةً لمعنى الإنسانية ..

فالإنسانية فى جوهرها هى كل ما يتحقق به الصالح العام لبنى الإنسان ، والصالح العام لبنى الإنسان هنا واضح لا لبس فيه ..

الصالح العام هو أن نلتهم هذه السلالة من المخلوقات أولاً بأوّل .. ونزدردها ازدراداً .. لنقوى .. ونخلد .. ونزداد بأساً ..

إنها حكاية لن تختلف كثيراً عن أكل الدجاج .. والسمك والجنبرى .. وسوف يكون من واجب الدولة أن توفر لنا هذا الطعام الواقى كما تسعى الآن إلى توفير كوب اللبن لكل طفل فى الجمهورية ..

بل إن هذه الحرب سوف تكون وسيلتنا إلى تحقيق سلام دائم على الأرض لأننا سنعالج بها الجوع والفقر والمرض والموت وننشر ألوية السعادة على الأرض بالفعل ..

ماذا يعنى هذا ؟ ؟

هذا يعنى أن الكلمات الكبيرة التى تتصف بالشمول والقداسة .. كالإنسانية .. والشرف .. والسلام .. سوف تتغير معانيها حينما نقتحم الأفلاك ونغزو الكون وتتحول إلى كلمات محدودة محلية لا تختلف كثيراً عن الأنانية .. والأثرة .. والبخل .. هذه الكلمات التى تقترن دائماً بالأعمال المرذولة .

فكل معنى من هذه المعنويات الرفيعة سوف يقترن بأنواع من العدوان .. سوف يقتضى ولاؤنا لجنسنا الإنسانى أن نُخضِع أىّ جنس آخر نعثر عليه ونستغله لصالحنا .. ولن نعرف للرحمة معنى .. لأن الرحمة والسلام والتسامح مع مثل هذه الأجناس الأقوى معناها أن نصبح خدماً لها .. ونتحول فى حضرتها إلى كلاب .. وإلى أشياء منحطة كالقرود .. معناها أن نضع أنفسنا فى حظائر .. وزنازين .. وحدائق « إنسان » مثل حدائق الحيوان عندنا .. ليتفرج علينا الجميع .

وغريزة البقاء والمحافظة على النفس سوف تدفعنا لأن نقتل هذه الأجناس .. وسوف يكون هذا القتل منتهى الإنسانية بالنسبة لنا .. ومنتهى السلام بالنسبة لجنسنا المهدد بالاستعباد ..

وهذا هو ما يحدث فى التاريخ لأىّ كلمة ولأى حقيقة .

كلما اتسع مدار التاريخ وكلما تقدمت عربة التطور .. تتغيّر معانى الكلمات وتنقلب إلى نقيضها ..

الولاء للعائلة كان فضيلة ثم أصبح شيئاً سمجاً اسمه العصبية العائلية .. ثم أصبح جريمة حينما اصطدم بمصلحة الوطن الأكبر .. أصبح شيئاً كالأنانية ..

ما كان يفعله فرغلى .. والبدراوى .. وللوم .. لصالح عائلاتهم أصبح فى إطار الصالح الوطنى العام .. عملاً غير مشروع ..

تغيرت معانى الكلمات لأن التاريخ خطا خطوة إلى الأمام .. والتطور انتقل من العائلة إلى القبيلة إلى الأمة .. إلى القومية .. وهو فى طريقه إلى العالمية .. ثم هو سوف ينطلق عبر الفضاء إلى الكون الفسيح .. وسوف تكون هذه الخطوة هى آخر عهدنا بالمقدّسات الكبرى التى نردّدها فى رهبة .. مثل الإنسانية .. سوف نخطو عبر هذه الكلمات .. وسوف نجد أنها غير أخلاقية .. وسوف نحاول أن نعلو عليها لنحقق وحدة اجتماعية أكثر شمولاً .. جبهة الأرض والقمر والمريخ والزهرة مثلاً .. الاتحاد الأعلى للمجموعة الشمسية .. المجلس الملى الكونى .. هيئة الأفلاك والمجرة والتبانة المتحدة ..

وسوف تكون الإنسانية فى هذا المفهوم الواسع كلمة رجعية .. وتعصّباً أعمى مثل التعصب للعائلة والقبيلة .. شيئاً سمجاً غبيًّا ، يؤدّى إلى الحرب والقتال والعدوان .

وسوف توجد موضوعات للحب أرق بكثير من حب المرأة ..

سوف نضحّى بصالح جيشنا الإنسانى إذا أردنا أن نحقق وحدة أوسع وأشمل بينه وبين سائر الأجناس فى الأفلاك والمجرات والكواكب الأخرى ..

وسوف نسعى إلى التزاوج من الأجناس الفلكية الأخرى لنرتقى بجنسنا .. سوف يصبح زواج المرأة والرجل عملاً عنصريًّا رجعيًّا غير مشروع ولن يعتبر مشروعًا إلاّ زواج بجنية فضائية حتى نضع البذور الأولى لخروج أجيال

جديدة راقية .. وحتى نرتقى بجنسنا البشرى ..

إن أول صاروخ اخترق الفضاء لم يحمل معه الكلبة لايكا فقط .. وإنما حمل معه أقدس ما عندنا من معان .. وأشرف ما عندنا من كلمات .. وألقى بها فى الفضاء ..

ومع كل صاروخ ينطلق ويدور تتغير معانى هذه الكلمات ..

مع كل أرض جديدة نغزوها .. وكوكب جديد ننزل عليه سوف نحتاج إلى دساتير خلقية جديدة ووصايا عشر جديدة .. ومعانى جديدة نعيش عليها ..!

هل سيكون بإمكاننا أن نلاحق هذه النهضة المادية السريعة بنهضة روحية تلائمها .. ؟

هل سيكون بإمكاننا أن نغير مفاهيمنا وعقولنا بنفس السرعة التى نغيّر بها أدواتنا المادية .. ؟

إن تطوير أدواتنا المادية أمر سهل .. أن نركب حنطوراً بدل الحصان .. أو عربة بدل الحنطور .. أو طائرة بدل العربة أمر سهل .. أما أن نستعمل أدوات عقلية جديدة .. ونفكر بمنطق جديد .. ونعيش بمقدسات جديدة وعقائد روحية جديدة فهو الأمر الشاق ..

والعقبات التى تعترض رجل الفضاء ليست هى اختلاف الضغوط ودرجات الحرارة .. وانعدام الهواء .. وانعدام الوزن ..

وإنما هو لحظة نزوله على الكواكب سوف يكتشف ما هو أهم من انعدام الوزن .. سوف يكتشف انعدام العقل ..

سوف يكتشف أن عقله ومفاهيمه العقلية التى تعوّد أن ينظر بها إلى الأشياء لا تصلح لحياته الجديدة ..

سوف يكون كحيوان يمشى بلا رأس .. كحشرة قشرية تتحرّك وتدبّ بأرجلها .. وتتصرّف بغريزتها .. ولا تفهم .. جندب .. أو جعران .. له قرون استشعار .. وله فم .. وله معدة .. ولكن ليس له عقل ..

وسوف يكون عليه أن يكتشف بسرعة عقيدةً جديدةً وعقلاً جديدًا ينظر به إلى ما حوله .. وضميرًا جديدًا يعرف به الحرام والحلال ..

لن تختلف الإنسانية عن الهمجية وعن وحشية آكلى لحوم البشر .. ولن يختلف الحب عن السفاح الذى يحدث بين الإخوة والأخوات ..

إن أول خطوة خارج الأرض لن تكشف نسبية أينتشين الرياضية فقط ولكنها أيضا سوف تكشف النسبية الأخلاقية ..

ملاح الأفلاك سوف يضع يده على نسبية الزمن .. ونسبية الحركة .. ونسبية الفضيلة ..

سوف تختلّ أمامه جميع الموازين ..

سوف يكون مثله مثل آدم .. يبدأ الخلق من جديد .

حدّوتة

كنت أجلس وحدى .. الساعة تدقّ الثالثة بعد منتصف الليل .. والمائدة أمامى عليها بقايا أكواب .. وأعقاب سجائر .. وفتات خبز .. وكراسى الطقم مبعثرة فى فوضى .. والجوّ فيه رائحة الناس الذين كانوا حولى منذ لحظة .. وأصوات قهقة مازالت فى أذنى .. وآخر ابتسامات .. وآخر كلمات مازالت تسحب فى ذاكرتى ذيلاً طويلاً ..

انتهت السهرة ..

وقع الأقدام خارجة .. مازالت على الدرج .. والباب وهو يغلق .. والأسانسير وهو ينزل .. حاملاً معه آخر هاللو .. أحلام سعيدة .. وتصبح على خير ..

وخطر لى أن أدير جهاز التسجيل .. وأستمع إلى السهرة من جديد .. وكنت أشعر بلذّة وأنا أتتبع الأصوات المختلطة وأتبين كل واحد منها على حدة .. هذا فلان .. وهذا فلان .. وهذا أنا ..

وأصغى إلى صوتى وأنا أقهقه .. وأقول .. كمان .. والنبى كمان .. حلو قوى يا خويا .. ويبدو صوتى فى أذنى خشناً وكأنه صوت رجل آخر ..

وأتطلع بأذنى إلى نبراتى كأنى أتطلع إلى صورة غريبة عنى لا أعرفها ولا يعجبنى صوتى ..

وأنظر إلى الجهاز الذى استطاع أن يفصل قطعة قطعة من نفسى ويسجلها ، ماذا يحدث لو استطاع العلم أن يخرج عقلى من مخى ويسجّله على شريط ويخرج عواطفى ويصوّرها .. ويطبع من ضميرى كارت بوستال ٦×٩ ..

ها هنا فى هذا الجهاز أصواتنا كلها معبأة فى شريط أقل من ملليمتر .. منقوشة على ذرات .. على هباء ..

ها هو اختراع جعل المادة طيعة لينة قابلة للتشكل قادرة على نقل أدق الصور والتعبيرات والسمات الإنسانية .

جهاز يجمع الإلكترونات وينثرها ويرسم منها حروفاً ونغمات وتونات طبق الأصل كما نطق بها صاحبها ..

إلى هذا الحد وصلنا فى ميدان الاختراع والمعرفة .. والابتكار .. !

وتذكرت آخر كتاب كنت أقرأه عن العصر الحجرى منذ ستة آلاف سنة .. وكيف كنا نعيش فى ذلك الوقت فى غابات البردى الكثيفة تمرح حولنا جواميس البحر والفيلة والدببة والضباع والغزلان والخيول والتماسيح ووحيد القرن والثور والقرد والحمار .. نأوى فى البرد إلى الكهوف .. وفى الحرّ إلى خيام نصنعها من جلد الماعز .. ونقضى نهارنا ننحت أسلحتنا من الحجر

الصوّان .. خناجر وسكاكين ورءوس للحراب وبلط وأزاميل وحراب وعصى من الخشب ونصال ذوات أسنان ودبابيس من العظم والعاج والقرن ..

فى ذلك الوقت كانت أعظم اختراعاتنا .. هى الفأس والمحراث .. والمقلاع .. والسهم والقوس ..

وأعظم مبتكراتنا التى قلبنا بها وجه التاريخ .. فلاحة الأرض .. وتربية الدواجن ..

وأغنى أغنيائنا رجل يملك كوخاً من الطين والبوص وقطيعاً من الخنازير وطقماً من الأوانى الفخارية ..

كان الفخار فى تلك الأيام شيئاً كالذهب .. وكوخ الطين شيئاً مثل قصر على شاطئ الريفيرا ..

واليوم ..

وما أبعد اليوم عن الأمس ..

اليوم .. الرجل العادى يسكن عمارة فيها أسانسير وماء ونور .. ويدخل سينما فيها تكييف .. ويحمل فى جيبه راديو ترانزستور .. ويأكل أقراص فيتامينات .. ويقرأ الصحف .. ويشاهد التليفزيون .. ويتكلم فى التليفون .. ويركب القطار .. ويشكو من الفقر ..

أما الغنى فإنه يستطيع أن يطير فى الهواء على طائرته الخاصة وينطلق فى البحر على ظهر باخرته الملاكى ..

شىء رهيب ..

إننا بالنسبة لأهل ذلك العصر.. سحرة .. مردة .. شياطين .. آلهة ..
إنهم لو بعثوا من قبورهم .. وشاهدونا .. يركعون سجدًا .. من
الرهبة .. والدهشة . والإجلال .

لو استمعوا إلى أصواتهم وهى تسجل على أشرطة وتبعث من جديد حيّة
نابضة ..

لو شاهدوا صورهم وهى تسجل فى التليفزيون .. وتتحرك كأن بها
مسًّا ..

إن التدرج البطىء الذى حدثت به هذه الحوادث فى الزمان هو الذى
أطفأ جدّتها وجعلها تبدو مألوفة .. ولكنها فى الواقع خارقة ومدهشة وإذا
أدركنا أنه بينما الإنسان قد قفز بعقله هذه القفزة الهائلة .. فإن كافة الحيوانات
حواليه مازالت على عهدها كما ألفها منذ ستة آلاف سنة .. مازال القرد يأكل
بنفس الطريقة ويقفز بنفس الطريقة من شجرة إلى شجرة ،، بدون
هليكوبتر .. والنمل مازال يخزن مئونته من فتات الطعام بنفس الطريقة
البدائية بدون ثلاجات .. والجواميس مازالت ترعى الكلأ .. لم تفكر مرة
أن تصنع منه سلاطة أو تطهيه بالمايونيز .. أو تتعاطاه أقراصًا ..

كل شىء واقف فى مكانه .. بينما الإنسان وحده يقفز .. ويطير ..

إذا أدركنا هذا فإننا سنشعر أننا ننفصل ونبتعد بسرعة عن أصلنا ..
كسلالة متفوّقة .. وخلفنا حيوانات تنقرض وتضمها المتاحف والحفريات فى
ثنايا الصخر ..

نجرى إلى الأمام بسرعة .. إلى الفضاء .. وما وراء الفضاء .. ووراءنا

الحياة مازالت تأكل الطين وتعضّ فى الحجر ..

نحن فى حالة هجرة أبديّة مبتعدين عن جذورنا الحيوانية وأرضنا ..
مغتربين أبدًا عن أسرتنا الأولى التى عاصرناها منذ فجر التطور .. حينما كنا
نسبح متجاورين معًا فى مستنقع واحد .. ونتسلّق الشجر مع القردة فى
عصرنا الحجرى ..

إن أحفاد أحفاد أحفادنا الذين ستلقى بهم عقولهم المتفوّقة إلى ما وراء
الفضاء سوف ينسون أصلهم وتاريخهم وسوف يبدأون صفحةً جديدةً على
كوكب جديد وكأنهم ملائكة بلا ماض .

ذلك الماضى البعيد الذى كانوا يعضّون فيه الحجر وينهشون اللحم نيّئًا
ويتعشّون هم وكلابهم على مائدة واحدة من عظام الحيوانات التى
اصطادوها ..

ذلك الماضى الذى يحكى لهم أصلهم الواطى ، لن يذكره أحد منهم ..
هؤلاء المحظوظون الذين ستفتح لهم الجنة أبوابها على مصاريعها ..

إنها حدّوتة عجيبة .. كحواديت ألف ليلة وليلة .. وخيال أبعد من كل
الخيالات التى تخيلها مؤلفو الخرافة ..

ولكنها الحقيقة برغم هذا ..

وحينما أدير جهاز التسجيل .. وأستمع إلى أصواتنا التى حفرها ذلك
الحفّار الكهربى على الذرّات ورسمها على الهباء ونقشها على الإلكترونات ..
أشعر أنها الحقيقة .. فهذا أنا .. أنا الذى أتكلم .. وهذه ضحكتى .. وقد
خرجت من ظلام المادة العمياء .. من نعش الإلكترونات وذريرات الهباء ..

وهذا هو العقل الرائع الذى يحمله الإنسان القزم بين كتفيه .. ويبتعد به بعيداً عن أصله .. ويقفز به فى كل لحظة سنوات وأجيالاً إلى الأمام .. وهو العقل الذى سوف يرمى به فى رمية واحدة إلى أطراف الكون حيث يعيش ويتكاثر وينعم .. وينسانا .. وينكرنا .. نحن أجداده الذين حملنا الطين على أكتافنا لنبنى له غرفات مهده التى ولد فيها ..

ا – ب الحرية

إذا كنت رجلا خرافيًا مثل السندباد البحرى . . تعيش وحدك فى جزائر واق الواق . . فإن حريتك لن تكون مشكلة . . سوف تكون وحدك . . لن يكون هناك صوت إلى جوار صوتك . . ولاحرية تزاحم حريتك . . وحدك . . مثل الحصان الذى يجرى فى حلبة السباق منفردًا فيطلع الأوّل لأنه لايوجد هناك ثان . .

لن تكون فى حاجة إلى نظام . . سوف تضع قوانينك لحظة بلحظة . . حسب مقتضيات مزاجك ورغبتك . . ثم تلغيها متى تشاء . .

سوف تخلع عريانًا ثم تتشمس بلا خجل . . سوف ترفع عقيرتك بالصياح أو بالغناء أو بالصراخ بدون أن تشعر بالحرج . فلاأحد هناك يطل عليك أو يسمعك . .

لن تعرف شيئًا اسمه عيب . .

وعيب ليه ؟ . . وبالنسبة لمن وكل شىء منسوب لك وحدك . .

من الذى تخشاه وتحسب حسابه ؟

لاأحد .

لاواجبات عليك نحو أحد . ولاحقوق لك عند أحد . : مهما سرقت لن تكون سارقًا . ومهما أحرقت لن تكون معتديًا . ومهما فعلت لن يكون لأفعالك تعقيب ولامراجعة .

أنت وحدك . .

ولكن الأمر يتغيّر تمامًا حينما تكون واحدًا من ألوف مثلك تتعايشون معًا فى مجتمع . . كلّ واحد حرّ . . وكل واحد يريد . . وكل واحد يحلم . . وكل واحد يرغب .

سوف تصبح حريتك محاصرة بحريات الآخرين . . ورغباتك محاصرة برغبات الآخرين . . وستجد نفسك فى حرب لاخلاص منها إلا بعقد اتفاق . . وتأسيس شركة اجتماعية . . وتنظيم علاقات . . وفرض واجبات وإنشاء حقوق . . وعيب . . وأصول . . ويليق ولايليق .

وهذه . . أ . ب الاشتراكية .

إنها عملية القسمة الضرورية لإنشاء مجتمع .

إن حرية السندباد البحرى لاتنفع فى مجتمع . . إنها مثل حرية السائق الذى يخترق علامات المرور ولايلتفت للإشارات ويسير على هواه كأنه يسير فى غابة . . وهى حرية نهايتها الهلاك . .

أما الحرية الوحيدة الممكنة فهى الحرية التى تتم بناء على تخطيط وتقسيم وتنظيم .

الفلاح يوفّر لك القمح .

والطحان يطحنه . . والخباز يصنع منه خبزًا . . والطابونة توصله إلى بابك . . وفى مقابل هذا تكتب مقالات وتؤلف كتبًا . . أو تفتح عيادات وتعالج المرضى . . والحكومة تدخل لك النور والمياه وتنقل لك البريد فتدفع لها ضرائب . . وتتطوّع فى الجيش .

شركة مساهمة يدخل فيها كل واحد بقسط . . وفائض الأرباح يتحول إلى مزيد من الحرية للمجتمع .

كل مايصنعه الغير تجده فى خدمتك وتحت تصرفك . . لو أنك فكرت الآن فى السفر إلى ألمانيا فإنك سوف تجد تحت تصرفك طائرات . . وسكك حديدية سريعة وبواخر .

وستجد أنك أكثر حرية . . وأكثر قدرة على بلوغ رغباتك من أيام زمان . . أيام كان أجدادك يسافرون على أقدامهم وستجد أنك تملك آلاف الأدوات رهن إشارتك .

وراء هذه الحرية التى تتمتع بها دون أن تشعر تختفى جهود الملايين . . جهود العلماء والمفكرين والاقتصاديين الذين صنعوا الطائرة والقاطرة والسفينة . . والأقساط التى دفعها أجدادك من حريتهم .

أنت تجنى أرباح الشركة المساهمة التى اسمها المجتمع . . وتكسب أضعاف الأقساط البسيطة التى تدفعها . . ومعها ثمار كلّ الأقساط التى دفعتها الإنسانية على مدى التاريخ . .

أنت وارث شرعى للحضارة والمدنية والعلم وكل ما يطالبك به المجتمع

فى مقابل هذا المقراث العريض . . هو قسط رمزى من حريتك . .

ومع هذا فأنت تصرخ من هذا القيد البسيط . . وتنسى هذه البحبوحة من الحرية والمتعة التى تكسبها فى مقابله . . لأنك سندباد . . مازلت تفكر بعقلية بدائية .

والرأسمالى الذى يرفض أن يساهم فى بناء المجتمع بقسط من ثروته سندباد . . يفكر بعقلية الغابة . . ويظن أنه يعيش وحده .

والحلّ الوحيد الذى يلجأ إليه المجتمع ليردّ هذه المخلوقات البدائية إلى عقولها . . أن يعاملها بالمثل . . أن يقطع عنها خدمات الخباز والعامل والفلاح ويقطع عنها النور والماء ويعيدها إلى الغابة لتعيش بين الثعابين والوحوش وتبيت وحيدة على شواطئ المستنقعات . . كما كان يفعل السندباد . . وتجرّب حريته الخرافية . .

القنبلة الخضراء

كيف بدأت القنبلة الخضراء على الأرض ؟ !

لاأحد يعرف . .

العلم حائر فى بداية الحياة . . وحائر فى نهايتها . .

وحينا يفكر العلماء ويجهدون تفكيرهم ليجاوبوا على السؤال الخالد . . من أين . . وإلى أين . . فإنهم غالبًا ماينتهون إلى لاشىء . . وأحيانًا يغرقون فيما يشبه الشعوذة . .

مثلا . . مفكر مثل فان هيلمونت وهو من علماء القرن السادس عشر يكتب قائلا :

إذا حفرت حفرة فى قالب من الطوب ووضعت بداخلها قليلا من الريحان المسحوق ثم غطيت القالب بقالب آخر . . وعرضت الاثنين للشمس . . فى نهاية بضعة أيام يتخمر الريحان ويتحول العشب إلى عقارب حقيقية . .

نكتة مثل نكت أبو لمعة .

وليس فان هيلمونت أبو لمعة الوحيد . . بل هناك مفكر عظيم كبير مثل أرسطو يقول هو الآخر . . إن الفئران تتولد من الطين الدافىء .

والذنب ذنب المشكلة وليس ذنب أرسطو.

إن الحياة مشكلة عويصة تخبل العقل . . مشكلة أكبر من أرسطو وأكبر من عقله . .

وأنا فى الحقيقة لاأهتم كثيرًا بنشأة الحياة وكيف بدأت . .

وإنما المخاطرة التى تشوقنى وتخبل عقلى . . هى قصة الحياة بعد نشأتها . . خط سيرها . . وتطورها . . وانتقالها من نوع إلى نوع وتسلقها البر والبحر والهواء . . واندلاعها مثل شعلة نار أمسكت بمخزن من البارود . . فانفجرت فى كل اتجاه . .

هذه هى المخاطرة الكبرى . .

والرجل العادى ينظر إلى الحياة على أنها شىء متكامل .

إنه يدهش بسذاجة لكمال النملة . . ويعتبر الفراشة كمالا ليس بعده كمال .

ولكن حقيقة الحياة وحقيقة سرها . . أنها غير كاملة . وأنها ناقصة وضعيفة ومعطوبة ومريضة . . وهى لهذا تتطور وتخرج باحثة عن كمالها ، تخرج فى مخاطرة مجهولة المصير كل يوم منذ ملايين الملايين من السنين . . لتصارع الجوع والموت وتتبع المحاولة والتجربة بالمحاولة والتجربة لتحسين أصنافها وتعديل أنواعها بأنواع أحسن تتحمل الحر والبرد والمرض . .

الحياة سلسلة تجارب . وتخبط ، وتورط ، وتقلب بين النجاح والفشل . . وبين الخطأ والصواب على مدى الزمن الطويل الخرافى .

كانت مشكلة الحياة فى بدايتها . . هى كيف تحصل على الغذاء والطاقة ؟

والحياة فرن لاتهدأ فيه التفاعلات إلا بالموت . وهى لهذا فى حاجة إلى وقود وحرارة على الدوام .

من أين الوقود ؟

كانت أول تجربة للمخلوقات أن تحصل على حرارتها من تخمير حساء المستنقعات الذى تعيش فيه .

وظلت الحياة ملايين الملايين من السنين تعيش من الحرارة التافهة البسيطة التى تنطلق من تخمر هذا الحساء حتى بدأ الحساء ينفد . . وبدأت تحدث مجاعة .

وبدأت الحياة تلفظ أنفاسها . . وانطلقت الخلايا القليلة الباقية تجرب حظها وتبحث عن الطاقة بتفاعلات كيماوية جديدة .

وبعد مليون مليون سنة من الأخطاء والتجارب اكتشفت الخلايا الخضراء وقودًا أقوى من الوقود الذرى . . هو مادة الكلوروفيل . . ومادة الكلوروفيل هى المادة الخضراء الغريبة التى اخترعتها النباتات وهى مادة تقتنص حرارة الشمس وأشعتها وتثبتها مع غازات الهواء والماء وتصنع منها مخزونًا من السكر تتغذى عليه خلايا النبات كلما جاعت .

وتقدر كمية الطاقة التى يخزنها النبات سنويًا بهذه الطريقة عشرة مليون

مليون مليون « جرام كالورى » . . أى بماقيمته مائة مليون قنبلة ذرية .

هذا الاكتشاف حدث قبل مجىء الإنسان إلى الدنيا . . اكتشفته النباتات فى مخاطراتها اليومية للبحث عن غذاء وبهداية خالقها من ملايين الملايين من السنين ماتت فيها أجيال لاعد لها من النباتات من الجوع والبرد . .

ولكن الحياة لم تكتف بهذا . . ولم تقنع ، إنها نهمة طموح شرهة .

إن خزن السكر وحرقه بهذه الطريقة النباتية لايؤدّى إلى حرارة كافية . . والحياة تتلهّف إلى نار أكثر . . وأكثر .

وهكذا عادت الحياة تبحث وتجرب .

وبعد ملايين أخرى من السنين اكتشفت بعض الميكروبات طريقة أخرى لحرق السكر بأكسجين الهواء مباشرة .

ومن هذه الميكروبات ظهرت سلالة جديدة هى الحيوانات التى تحصل على حرارتها بالتنفس ، واستنشاق الأكسوجين من الجوّ مباشرة وحرقه فى الكبد . .

وفرحت الحيوانات بهذه القنبلة الأكسوجينية لأنها أعطتها حرارة أكثر . . ومكنتها من نشاط أكثر . . فأصبح فى إمكانها أن تتحرك وتقفز وتسبح وتطير . . و ولم تعد مضطرة إلى قضاء حياتها واقفة فى مكانها مثل النباتات .

ولكن الحياة . . شرهة نهمة ، طموحة ، لايكفيها شىء . وهى مازالت تتطلع إلى أكثر .

وظهر الإنسان . . وبعد ألوف قليلة من السنين اكتشف الإنسان النار والفحم والبخار والكهربا .

ثم اكتشف القنبلة الهيدروجينية . .

ولكن الحياة شرهة نهمة ، طموحة ، تريد مزيداً من الطاقة لتنطلق فى الفضاء .

والتجارب مازالت مستمرة . . والحياة النهمة تجرب ، وتصيب ، وتخطئ . . ويهلك منها الألوف فى التجارب تعوضها بالملايين كلما كشفت سراً جديداً .

وهذه هى القصة التى تملأنى بالدهشة والعجب والنشوة . . هذه المخاطرة الأزلية الأبدية . . جرياً وراء التفوّق .

وهى مخاطرة تكشف لى عن روح الحياة الخفية ، تكشف لى أن الحياة قلقة متفجّرة بطبعها ، تكره الاستقرار والاستمرار على وتيرة واحدة . وتكره الرضى والقناعة والقبول والاستسلام . . وإنها شبقة شهوانية يتآكلها الطموح والقلق الحافز والمخاطرة بسبب وبدون سبب لاقتحام المجهول وكسب أراضى جديدة . . مغرمة بالتغيير والتبديل والتصنيف وتخريج موديلات جديدة كل يوم . . وكل لحظة . .

وهذا هو السر العميق لقلقى وقلقك . . وقلق ذلك الرجل الذى تقابله فى منعطف الطريق . . وتشاهده يحملق فيك وأجفانه تختلج فى عصبية .

إننا جميعا نعبّر بقلقنا عن هذا الجوهر العميق . . نعبر عن هذا الفوران البركانى الذى يضطرم فى داخلنا والذى يستكن فيه سرّ الحياة الأعظم . .

نعبّر عن تلك القنبلة الخضراء التى تعشّش فى قلوبنا . . وتنفجر كل لحظة عن رغبة . . أو أمل أو اندفاع . أوشهوة فى المزيد . أو انطلاقة إلى المجهول .

حتى النبات الساكن المشلول . قد انفجرت فيه هذه القنبلة الخضراء يوما ما . . وأمدّته بالحياة التى سرق بها نور الشمس ليشربه ويتغذّى عليه . .

إن الجوع فينا ليس مرضًا . . والقلق ليس مرضًا . إن الجوع فى لحاء الشجر . . وفى عيدان الذرة الخضراء . والقلق فى خلايا الورود . وفى دم العصافير المغردة .

هذه الزوابع النفسية التى تهبّ علينا من داخلنا . . هى من روح الله فينا .

والإنسان القلق ليس إنسانًا مريضًا . وإنما المريض هو ذلك الإنسان الآخر الهادئ الكسول القنوع المستقر المسترخى . .

– إن الحياة تنظر إليه وكأنه ليس منها . . ربما كان ابنها . . ولكنه ليس ابنا شرعيا . لأنه لايحمل حقيقتها وجوهرها .

وإنما أولاد الحياة البكر الحلال هم الذين ينتفضون كل يوم وراء مخاطرة كبرى يقتحمون بها المستقبل .

قبل الإعدام

لو فكّر كلّ واحد فينا طويلاً وسأل نفسه . . ماذا كان يعمل طول عمره . . لوجد أنه كان طول حياته كالخادم الذى يتسلّق سلالم عمارة لاآخر لها . . يحمل طلبًا مجهولا إلى زبون مجهول فى شقة مجهولة . . ويجرى متسلقًا ليتوقف عند كل شقة ويطرقها فيخرج له شخص يتفرس فيه فلايجد فيه ضالته فينطلق مهرولا من جديد إلى دور آخر . . وآخر . . يداعبه الأمل فى الوصول . . ثم يموت كالعادة دائمًا قبل أن يصل إلى غايته . . ويقع صريعا على إحدى درجات السلم السحرى الصاعد إلى مالانهاية . . ويلفظ أنفاسه . .

إننا لانعرف ماذا نستهدف بالضبط ؟ . .

نحن ننطلق كالقذيفة بفعل وقود ذرى من الحماس الغامض والأمل نحو أغراض مؤقتة يخيل لنا كل مرة أنها غاياتنا ثم مانلبث أن نكتشف بسرعة أنها لم تكن إلا محطّات نتوقّف عندها ونطرق الباب فتخرج لنا أشباح ليست فيها

ملامح الآمال التى كنا نتوقعها .

لذة الجنس تبدو لنا فى لحظة أنها غايتنا . . ونستهدفها . . مرة بعد مرة . . ونكتشف كلما طرقنا بابها وكلما فتحت لنا الباب أنها ليست هى الشىء الباهر الذى كنا نحلم به .

المكسب المادى يبدو لنا فى مرحلة أخرى أنه هو الحافز الذى يحفزنا والهدف الذى يشكل سلوكنا ويفسر نشاطنا واهتمامنا . . ولكننا حينما نحصل على المكسب المادى لانصل إلى سكينة ولانبلغ اطمئنانا . . وإنما نظل نتحرق . . نتحرق على ماذا ؟ ! . .

اللذة فى يدنا . . والفلوس فى جيبنا . . ماذا نريد ؟ وعلام نتحرق ؟ لم يكن المكسب المادى هدفنا إذن . . وإنما كان سرابًا . . لسنا عبيدًا للجنس ولا الطعام . . ولا للأمان المادى . . إنها كلها محطات على طريق هذا السلم الحلزونى الصاعد إلى مالانهاية فى ناطحة السحاب التى اسمها الحياة . . محطات مؤقتة . نكتشف فيها أننا كنا على خطأ . . وأننا ولدنا نجرى وسنعيش نجرى برسالة مجهولة إلى زبون مجهول فى شقة مجهولة .

كل الظواهر تدل على أننا جميعًا ضحايا مطالب غير محددة وحاجات لانهائية غير قابلة للإشباع . . ليست الجنس . . وليست الطعام . . وليست المادة .

فرويد لايفسر حياتنا بنظريته فى الجنس . . وماركس لايفسر حياتنا بنظريته فى الاقتصاد . ونيتشه لايفسر حياتنا بنظريته فى القوة . . كل هذه تفسيرات جزئية . .

حاجاتنا الجنسية لاتفسر قلقنا .

وحاجاتنا الاقتصادية لاتفسر أشواقنا .

مشكلة الإنسان ليست من السذاجة بحيث يحلها لقاء جنسى ومصروف جيب . . وهى فى العادة لاتنتهى بهذه المسكنات وإنما تبدأ فيكشف القلق عن وجهه المجرد بعد أن يرتوى وجهه الآخر المادى . . فإذا به قلق أصيل . . قلق فى النخاع . . فى الروح . . وماتلبث أن تنتقل المشكلة إلى مستوى آخر . . إلى مستوى روحى . . فيطلب الإنسان حريته بعد أن يجد وجبته . . ويبحث عن إلهه بعد أن يجد نفسه . .

إن فرويد وماركس محطتان على السلم . . على الطريق . . سوف نمر بهما . . ولكننا لن نتوقف عندهما . . ولايوجد مذهب نتوقف عنده . . إن كل المذاهب محطات على الطريق . . نصعد عليها . . ثم ندوسها لنصعد من جديد إلى أعلى .

وبرتراند راسل على حق فى أن يصيح هذه الصيحة . . ليطالب للمواطن المدنى المسكين المطحون تحت المنظمات وتحت الحكومات بحق العصيان . . بحق أن يدوس على القانون الذى لايعجبه .

إننا جميعًا باعتبارنا محكوما علينا بالإعدام . . بالموت . . فى نهاية حياتنا لابدّ أن نعطَى الحق فى أن نطلب طلبًا . . فى أن نطلق صيحةً . . فى أن نقول رأيًا . . وحيث يكون كل شىء فاسدًا وفانيًا وقصير العمر فإنه لايكون هناك معنى للتعصّب . . ولايكون هناك معنى لادعاء العصمة . . فكل إنسان عرضة للخطأ . . وكل نظام عرضة لأن يأكله السوس من جانبه .

ولن نكون بمنجاة من الغرق والدمار إلّا بالعودة . إلى هذا الحق الأوّلى الإلهى فى أن يكون للمواطن البسيط المسالم الحق فى أن يعترض . . بهذا وحده تصبح الحكومات مؤيّدة بما هو أقوى من أسلحتها وجيشها . . تصبح مؤيدة بإرادة شعوبها ويصبح السلام مدعما بإرادة الجميع . وتصبح الإنسانية بخير .

إن مظاهرة برتراند راسل هى فى الواقع أكثر من مظاهرة . . إنها ناقوس يدقه مفكّر حرّ شريف من أجل خير الجنس البشرى كله . . ومن أجل هدايته إلى حياة كريمة نافعة مأمونة الأخطار .

إذا كان نصيبنا من الحق هو مجرد محاولة فعلى كل منا أن يمنح الآخر فرصته ليحاول محاولته ويدلى بكلمته . إن كل النظريات لاتسدّ فراغاً . . ولاتوجد نظرية تستطيع أن تدّعى أنها تحتكر الحقيقة . . إن ناطحة السحاب التى نصعد عليها مهرولين . . ليس فيها روف جاردن يستطيع أن يدعى أنه الهدف النهائى لكل هذه الملايين التى تصعد مهرولة على الدرج . .

إن الجنة هدف مزعوم فى خيال كل واحد منا يحاول أن يحققه بالتقسيط على محطات . . وهو فى كل محطة يفاجأ بأن الجنة ليست هنا . . الجنة فوق . .فيجرى إلى فوق . . فيفاجأ بأن الجنة فوق . . وهو أبدًا يهرول إلى فوق . . ولايوجد سقف للتطور . . ولاروف جاردن للحياة . . ولانظرية واحدة للحق الأسمى والخير الأسمى . . كل ما هنالك محاولات متواضعة تنتهى كما ينتهى أصحابها وتصححها محاولات أخرى تدوس عليها وتصعد عليها . . ثم محاولات ثالثة تدوس على الاثنين . . وهكذا بلا آخر . . مجرد

محاولات قصيرة العمر مثل أصحابها . . فلماذا التعصب ؟ . . ولماذا المشانق ؟ . . ولماذا الحروب الغبيّة ؟ . . والقنابل الذرية ؟ . . ولماذا تريد الدول قنابل ذرية ؟ . . لتقذف روسيا أمريكا . . أم تقذف أمريكا روسيا . . وبأى حقّ . . بالحق الذى تدعى كل واحدة أنها تحتكره . . خرافة . .

إن المسكين المطحون المسحوق المذعور الخائف الذى لايستطيع أن يتكلم هو المواطن المسالم تسحقه القوانين من فوقه ومن تحته ولايملك لها دفعاً . لايملك وسيلة . . كل الوسائل فى يد البيت الأبيض والبيت الأحمر .

هذ هو المواطن الذى حمل برتراند راسل رايته . . وأعلن أن له الحق على الأقل فى أن يجلس على الرصيف . . ويقول . . . أنا لاأوافق على إنشاء قاعدة ذرية إلى جوار بيتى . . أنا لايعجبنى هذا القانون . . أنا رأيى كذا .

ومن هو الذى وضع القانون ؟

سولون ؟ ؟ . .

مونتيسكيو ؟ ؟ . .

شيشرون ؟ ؟ . .

إنهم آدميون . . بشر . . وضعوا قوانينهم من أجل الناس . . وإذا أصبح الناس تعساء بهذه القوانين . . يجب أن نفكر لهم من جديد ونضع لهم قوانين أخرى . .

لايوجد قانون أرضى يستند إلى حق إلّهى . .

إن القوانين الإلّهية ينفذها الله نفسه . . وهى لاتحتاج إلى استئناف . . أما قوانيننا نحن . . فعلينا أن نغيّرها دائماً . من أجل الناس . . فهى مجرد

قوانين أرضية . . مرتبطة بظروف وضعية وزمنية محدودة مؤقتة . . إنها مجرد محطات . . مجرد أدوار وشقق فى ناطحة السحاب التى نصعدها باحثين عن العدالة والحق والحب والسعادة . . إن الرجل العادى البسيط الصامت الذى يمشى فى الطريق ترعد حوله السماء بالكهرباء والنيون والصواريخ وسفن الفضاء والأقمار الذرية . . هذا الرجل المسكين قد فقد القدرة على الكلام . .

إن القنابل الذرية سوف تلقى على الناس باسمه . . وسوف تلقى على رأسه باسمه . .

كنيدى يتحدث باسمه . .

وستالين يتحدث باسمه . .

وماكميلان يتحدث باسمه . .

ولكن هو . . هو نفسه . . صاحب الشأن . . قد فقد القدرة على الكلام .

ولأول مرة فى التاريخ . . يطلب إليه أن يتكلم . . أن يقول . . لا . . برتراند راسل يجلس إلى جواره على الرصيف . . ويطلب منه أن يتكلّم . . أن يقول . . لا . . لاأريد قواعد ذرية . .

هذا يوم تاريخى للحرية . .

الغرور

أحيانًا أشعر بأن الغرور فضيلة . . وأحيانًا أسأل نفسى . .

ماهى الغريزة التى دفعت فنانى الموضة إلى ابتكار ألوان لامعة متألقة مشعّة . . مثل الساتان واللامية وموضات مثل القبعة العالية . . والياقة العالية . . والذيل المنفوش . . وغطاء الرأس ذى الريشة . . والشعر المستعار . .

ماهى الرغبة المستترة التى كانت فى ذهن خوفو حينما طلب أن تكون له مقبرة أضخم من كل المقابر فى الدنيا . . مقبرة سامقة تخرق السماء ولايقوى عاد من عوادى الزمان على هدمها . . ماهى الغريزة الخفية التى رفعت الهرم على أضلاعه الأربعة . . وأقعدته ثلاثة آلاف سنة يخرج لسانه للنجوم . .

ماهى الدوافع الخفية التى خلقت لنا أنتيكخانة مليئة بالتحف والتماثيل . . ولماذا كان تمثال رمسيس الذى نراه كل يوم بميدان باب الحديد بهذا الطول الشامخ . . ولماذا كان تابوت توت عنخ آمون من الذهب

وصحافه من الذهب وجدران غرفاته من الذهب . .

ولماذا يتخذ السوفيت نجماً مثل جاجارين أو تيتوف . . ليضعوه على رأس الإعلان اليومى عن انتصارات الفضاء . . وكلما انطلق صاروخ دقت وراءه الطبول وانطلقت أحاديث صحفية وصور وبرقيات . . ووقف خروشوف يقول . . عندى قنبلة قوتها مائة مليون طن ديناميت تمحو أوربا فى لحظة . . ووقف أيزنهاور يقول . . ها . . ها . . نحن نتجسس عليكم من سنوات وأنتم لاتعلمون .

ما الذى جعل ناطحة السحاب ترتفع مائة طابق فى السماء . . وأرض الله واسعة . . ويمكن بناء مائة فيلّا وفيلّا فوقها .

لايمكن أن تكون الضرورة الفنيّة وحدها هى التى قررت هذه الرغبة فى الشموخ . . لاأصدّق . .

إن الرغبة فى الشموخ ذاتها أكثر أصالة من هذا الإلهام المعمارى .

إن الإنسان طاووس مزهو . . فيه غرور . . غرور خلّاق بنّاء ومخرّب مدمّر فى الوقت نفسه . .

وهو فى محاولته تحقيق هذا الغرور وتأكيده يتحايل فى البحث عن تبرير ومنطق وحجّة معقولة يتوسّل بها إلى أغراضه . . وهو حينما يجد هذه الحجة يكون فنّاناً . . ومخترعاً . . وفرعوناً . . وصاحب دين ورسالة . . وعلماً من أعلام الإنسانية . . وحينما لايجده . . لايجد مفراً من أن يكون سفّاحاً يقتل ويذبح ويسرق ولايجد حجة يبرر بها جرائمه أمام ضحاياه . . وتنتهى به لامعقولية غروره إلى السجن والمشنقة .

الإنسان غرور يبحث عن معقولية . إنه نسر محلّق . . وصقر متعالٍ يبحث عن قمة يقف عليها . . وأرض يستوى عليها . . ويستوى عليها جبروته وعزّته وغروره . .

والقمم الوحيدة الممكنة التى يستطيع هذا النسر أن يتربع عليها هى قمم من الأهداف المجردة . . ومثل الخير والحق والجمال . . والعدالة . . وكلها معقولات كلها فى حاجة إلى عمارات من المنطق والحجج والبراهين .

وهو إذا استطاع أن يقيم هذه العمارات فإنه يستطيع أن يغطى غروره ويخفى رغبته الأصيلة فى الطموح والتفوق بقناع جميل بهيج من الخير والجمال والحق وهو بهذا يفيد ويستفيد .. ويريح ويستريح من هذه الحكة الأبدية التى تأكل قلبه . .

وهو إذا لم يستطع . . يتحوّل إلى صقر مجنون . . ونسر بهلوان . . لايجد قمة يقف عليها سوى نفسه . . فيقف على رأسه بالمقلوب . . رجلاه فوق . . ورأسه تحت . . وهو منظر مضحك لايقنع أحداً . . ونهايته مستشفى المجاذيب .

لماذا تصرّ زوجتى على أن يكون أثاث بيتها أحسن أثاث وشقتها أعظم شقة وزوجها أعظم زوج . . إن هذا الغرور يغيظنى . . وعلى إيه ده كلّه ؟ !

ولكنى أكتشف . . أنى أيضاً . . وأحياناً . . أتمنى أن تكون زوجتى أحسن زوجة وبيتى أحسن بيت والكلمات التى أكتبها أجمل كلمات .

إن زوجتى بفطرتها لم تعبّر عن عاطفة غريبة عنها وعنّى . .

إنه الفرعون القديم . . يطلب أن تُبنى له أهرام أخرى . . من مليون

صفحة . . ومن ألف طابق . . ومن مائة لقب ولقب . . ولاشبع أبدًا . .

الكرباج الذى ينزل على ظهرها . . ينزل على ظهرى أيضًا . . . كل ماهنالك أنها قد جسّدته أكثر وأكثر لعينى . .

وهكذا الإنسان دائمًا . . رغبته فى التفوّق لاتشبع .

وهذه لذّته . .

لاأصدق أن العباقرة يضحّون بشىء ولاأن العظماء المصلحين يفتدون بدمهم أحدًا . .

إن هذه لذّتهم . .

لذّتهم المجد والتفوّق .

ولو أنهم أعطوا الحرية والأمان وخزائن الذهب وكمّمت أفواههم لكأن هذا هو عذابهم الأكبر . . واستشهادهم الحقيقى .

إنهم نسور حقيقيون لايطلبون إلا الأعالى ولو كان طريق هذه الأعالى هو الشوك والدم والعرق . . فإنّ هذه الأشواك هى السكر المعقود فى أفواههم .

وماهو التاريخ ؟ . .

إنه أكداس من الغرور . . والكلمات الطنّانة .

إنه الكتاب الأبدى الذى يكتبه دائمًا المتحيّزون . . أصحاب المصلحة . . أما الآخرون فإنهم يموتون وتموت آراؤهم معهم .

الإنسان ذلك الطاووس .

إن كل فضائله لاتستطيع أن تخفى غروره عنى لأنّى أرى هذا الغرور . . وأكثر . . أنا أحسه . . إنه حكّة فى بدنى . . لاعزاء لى من لعنتها الأبدية . .

إلا أن أخلق بها شيئًا جميلا .

أحاول أن أجملها فى عينى . . وفى عين الناس بالبحث عن عذر جميل لبقائها . .

الأدب . .

الفن . .

الموسيقى . .

الشعر . .

إنها سيمفونية الألوهية والعظمة والمجد والشموخ التى يعزفها الإنسان لنفسه وللناس وينام على أفيونها كل ليلة .

إن هذا البرومينيوس المصلوب على غرائزه . . تنقر غربان المجد كبده . .

لايستطيع أن ينام إلّا على هذه الأنغام الإلّهية . . فحينما تصدر عنه هذه الأنغام يستريح . . ويشفى كبده الجريح ويلتئم . . ولكن كبده ماتلبث أن تعود فتتآكل من جديد حينما يفيق ويجد نفسه عبدًا ذليلا نحيلا يرتجف . . يهزمه الموت والمرض والشيخوخة .

إن كبده يعود فيدمى . . يدميه الذلّ والمهانة . . والضعة . . فيصرخ ويبكى ويحنّ . . ويعود يتغنّى بترانيم الآيات السماوية . . والأنغام العلوية . . ليلتمس الراحة . . وينام من جديد .

والإنسان ليس مخيّرًا فى هذا الغرور . . إنه محكوم عليه بغروره .

إنها ضرورة بقائه تحتم عليه أن يدافع عن هذا البقاء بأن يوظّفه فى شىء ويتفوّق به على نفسه .

إن رجليه تلحّان عليه بأن يمشى ويجرى ويرقص . . وعيناه تلحّان عليه بأن يدقّق ويحملق ويتفحّص . . وأنفه تلحّ عليه بأن يتشمّم . . وعقله يسوقه رغما عنه ليتفكر .

إن وجوده ليس وجودًا معلّقًا فى الهواء . . ولكنه حركة واندفاع تلقائى لعدة وظائف . . ولامفر له من طاعة هذه الوظائف وتحقيقها . .

إنه لا يستطيع أن تكون له ساقان ويقف مشلولاً .

وهو إذا رفض أن يوظّف ساقيه وذراعيه وعقله وقلبه . . وجلس مكانه متكاسلا متثائبًا مايلبث أن يعاقب بالملل . . الملل الفظيع الخانق الذى يظلّ يخنقه ويجثم على أنفاسه حتّى يدفع به إلى الإحساس التام بعدم الفائدة . . وعدم النفع . . وعدم الجدوى . . ثم إلى الانتحار .

وهكذا يحكم على نفسه بالموت . . لأنه رفض أن يريد الحياة .

الإنسان تحكمه ضرورة نموّ . . ضرورة تدفعه دائماً إلى فوق . . مثل الضرورة التى تدفع عصارة النبات من الأرض إلى فوق . .

ولايوجد طريق عكسّى .

وراءنا لايوجد شىء . . وكل من يتقهقر يقع فى هذا اللاشىء ويموت .

الحياة صمام يدفع إلى اتجاه واحد . . النمّو والارتفاع . . والعلّو . . والتفوّق والتسلّق .

والعاطفة التى تحرس هذه الدوافع ، هى الغرور . . والطموح وعشق المجد . . ومانسميّه أحيانا بالكرامة والعزّة والكبرياء . . والشرف .

إنها المسلّح الذى يحول دون سقوط هذا البنيان من الورق .

غرورنا ينفخ فينا فنيطير مثل طيّارات الورق إلى فوق .

كلنا أطباق طائرة . . تتفاوت مجالاتنا بحسب مافينا من وقود وغرور .

وهذا المقال نفسه غرور .

وهذه الثقة التى أكتب بها غرور .

وإن كان اعترافى بهذا الغرور يداوينى بعض الشىء من الغرور الكاذب . . ويحفظ لى كفايتى من الغرور النافع .

هل أنت مغرور ؟ . .

أنصحك بقراءة المقال من الأول . .

سرّ الحياة

كنت أنظر إلى العيد من خلال نافذتى الصغيرة التى تشبه قمرة السفينة . . والبومب يطرقع والبالونات تتطاير تحت أنفى وقهقهات الأطفال ترنّ كالأجراس الفضّية فى الشارع . . وصوت الكبار الأجشّ فى داخل الغرفة يعلو من لحظة لأخرى فيغطّى على هذه الحمّى . . فأسمع الرجل الأشيب الجالس خلفى يقول لصاحبه :

– أسمع ياأخى . . الواحد منا يجب أن يزن الأمور . . الواحد يجب أن يتروّى . . يستعمل عقله .

ويسعل ويبصق ويتنحنح ويتمخّط فى منديله ثم يقول مردفًا .

– يجب أن نفكر فى العواقب . . يجب أن نأخذ حذرنا . . ونحسب حساب المستقبل . .

. . من أدراك مثلا أن الجو فى الغد سوف يكون صحوًا كما هو اليوم . . إننا الآن فى بداية الصيف . . ورمال الخماسين تسفيها الصحارى من حولنا فى

الجهات الأربع .

لو كنت منك لترددت مائة مرة قبل أن آخذ هذه الخطوة . .

ويضرب الطفل بومبة فى الشارع فتفرقع بشدة فيقفز من الفرح وينط ويمشى على يديه وهو يتراقص كالقرد .

ويعود الرجل العجوز خلفى فيقطع على الفرجة قائلا لصاحبه وهو يتمخط مرة أخرى .

– الواحد منا يجب أن يتعقل . . وينظر أمامه وخلفه قبل أن ينقل قدمه . . الدنيا لم يعد فيها أمان . . أخوك شقيقك يسرقك . . وزوجتك أم أولادك لاتستطيع أن تطمئن لها . . الحرص واجب . .

ويتشعلق الطفل على عامود النور ويصعد عليه ثم يتزلق وهو يضحك . . ثم يعود فيصعد من جديد ويتزلق . . ثم ينفخ بالونته إلى آخرها ويطرقعها ويقهقه ثم يبكى ثم يعود فينفخ بالونة أخرى ويطرقعها ويضحك ويبكى ويبعثر انفعالاته بلا مبالاة . . وكل شىء فى الشارع يتفجر بلا مبالاة . . دموع الأطفال وضحكاتهم تنطلق كالصواريخ بلا مبالاة .

والعجوز من خلف كتفى يقول بصوته وهو يلهث ويتنحنح :

– الواحد منا يجب أن يتعقل . . يجب أن يأخذ حذره . . ويزين الأمور . . الحب الذى تقول عنه ليس حبًا ولكنه طيش وكلام فارغ . . من أين لك الضمان بأن مثل هذا الحب يدوم . . إن الزواج شىء والحب شىء آخر . . والواحد يجب أن يتعقل . . ويرفع أصبعه النحيل ويشير إلى النافذة :

– أغلق النافذة أرجوك . . هناك تيار . . والباب أيضًا . . الحرص واجب . . أنت لم تعد صغيرًا .

وأغلق زجاج النافذة . . ولكن عينىّ تظلان معلقتين بدوامة الحياة فى الشارع . . بالحياة التى تتفجر فى عنف . . بلا حرص وبلا مبالاة . .

ويقول لى العيد سر الحياة . . سر الشباب . . والصبا والطفولة . . سر اللذة . .

أن أعيش حياتى على آخرها وأنفجر مثل البالونة . .

أن أقول كلمتى وأتحطم . .

أن أعلن حقيقتى . . ورغباتى . . بلاخوف . . وبلاتحفظات . .

أن أجاهر بكل ماهو صادق وحقيقى فى نفسى بلا مبالاة .

أن أعيش كالطفل البسيط المرح . . أبعثر انفعالاتى وأضحك من قلبى . . وأبكى من قلبى . .

ألّا أخفى شيئًا على سبيل الحذر . . وأنكر شيئًا على سبيل الحرص . . وأدّعى شيئًا على سبيل الأمان . . فما الحرص والحذر والأمان إلّا أعراض الموت والشيخوخة والتعفن والصدأ . .

إن الشيوخ والعجائز والكهول هم الذين يزنون الأمور بحنكة . . ويترددون . . ويقدمون رجلا ويؤخرون أخرى . ويكذبون . . ويحتالون . . على سبيل الاحتياط . . والحرص . . والحذر . .

وهم يحتاطون لأنهم يشعرون أن حياتهم نفدت وأيامهم انتهت . . لم يعد لديها رصيد يعتمدون عليه ليقوموا بعمل جرىء . . لم تعد لهم ثروة من العمر

يقامرون عليها . .

الحنكة والحيطة والحذر تزحف على الإنسان مع أعراض الروماتزم والنقرس وتصلب الشرايين . .

إنها الصدأ الذى يصيب الروح بالإمساك فتحتبس خلف الضلوع . . لاتقول شيئًا . .

اللهم قنى شرّ الحرص والحذر والحيطة . . وأحينى طفلا شجاعًا . . وأمتنى طفلا شجاعًا . .

اللهم إنى لاأريد أن أكون محنكًا أبدًا . .

أريد لقلبى أن ينفجر وهو يقول مافيه . . ولاأريده أن يموت مطوّيًا على سرّه . .

هذه حياتى ولست أملك حياةً غيرها . . عاونّى لأمنحها كلها وأنفقها . . وأبذرها . . وأهتك سرّها . .

فهرس